محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

الجزء الخامس

تأليـــف:

فضيلة الشيخ / محمد الصادق إبراهيم عرجون

عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر سابقًا

بسم الله الرحمن الرحيم

أم المؤمنين السيدة خديجة كانت أعرف بقدر محمد ﷺ:

لقد كانت أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها الزوجة الأمينة الوفية بفطرتها الأصيلة -أعرفَ الناس بقدر محمد رسول الله ﷺ وأعلمهم بجلال رسالته، وعظمة نبوته، وأشدهم إيقانا بمقامه عند الله.

فهي رضي الله عنها إذ يعود إليها ﷺ من متعبده وخلوته إثر مفاجأة الملك له في غار حراء، ويتحدث إليهم، بعد أن استراح متزملًا، متدثرًا في فراشه لتهدأ نفسه الكريمة من هول ما كابدت من عناء المفاجأة وما احتف بها من الغط الجاهد المجهد، الذي هز بشريته هزًا بالغ الأثر في بدنه، ويقول لها: «أي خديجة: ما لي؟ لقد خشيت على نفسي» ويخبرها خبر ما رأى وما سمع، يخبرها عن مجيء الملك له في غار حراء، ومفاجأته بهذا المجيء، وما جرى له معه من طلب القراءة والغط، وتكرار ذلك بأقصى ما تحتمل طاقته البشرية، وهو ﷺ -بلا شك- كانت بشريته ترزح تحت وطأة التعب المادي من شدة ما لقي في هذا اللقاء المفاجئ من هزة وارتياع، بمقتضى دواعي الطبيعة البشرية أينما كانت وكيفما كانت من الحياة في أرض الله تسارع إلى إيمانها

الفطري، وإلى معرفتها بسنن الله تعالى في خلقه، وإلى يقينها بما يملك محمد ﷺ من رصيد في مكارم الأخلاق، وفضائل الشمائل، ليس لأحد من البشر رصيد مثله في حياته الطبيعية التي يعيش بها مع الناس، وإلى ما ألهمت بسوابق العناية الربانية التي شهدت آياتها من حفاوة الله تعالى بمحمد ﷺ في مواقف لم تكن من مواقف النبوة والرسالة، ولا من إرهاصاتها المعجزة، وأعاجيبها الخارقة، ولكنها كانت من مواقف الفضائل الإنسانية السارية في حياة ذوي المكارم من أصحاب المروءات في خاصة البشر.

فتقول له رضي الله عنها -مستلهمة إيمانها الفطري، ومعرفتها بسنن الله في الخلق، وما يملك محمد ﷺ من رصيد المكارم الإنسانية-: كلا -أي لا تخش شيئًا يعوقك عن الوصول إلى ما أريد بك من الخير والشرف، وإنك لبالغ من فضل الله وإنعامه ما يبلغك أهداف ما حملت من أعباء الحق والهدى، ولن يخزيك الله أبدًا؛ لأنه أعدّك بما ألبسك من خلع المكارم الإنسانية؛ لتكون موضع نظره الرباني، ورعايته الصمدانية، فقد جملك بأصول المكارم التي لا يمكن -في شرعة سنن الله الكونية- أن يخزى من تحلى بها.

كلمات النور عنوان على الكمال المحمدي:

«إنك لتصدق الحديث، وتصل الرحم، وتحمل الكَلّ،

وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وتؤدي الأمانة».

وهذه الكلمات المشرقة بنور الإيمان الفطري، النابعة من ضمير الغيب، إلهامًا من وحي اليقين بمخايل الحقيقة الكبرى في تصور مستقبل محمد ﷺ، تضيف إلى يقين النبي ﷺ وثباته أمام الأحداث، ورباطة جأشه في ملاقاتها، تثبيتًا يزيده قوة إلى قوته، ويُسرِّي عنه ما ألم بخياله، ويمسح عن خواطره ما عسى أن يكون طاف بها من تخوف العقبات في سبيل انطلاقه برسالته، بل إن خديجة رضي الله عنها تريه بهذه الكلمات المشرقة أنها تستبعد كل الاستبعاد ما هجس في نفسه ﷺ إشفاقًا أن تضعف قواه البشرية عن تحمل أثقال ما حمل من أعباء الرسالة، وحرصًا منه ﷺ على تمكنه من تبليغ رسالة ربه، وتخطي ما تصوره من العقبات في سبيل ذلك التبليغ.

وتضيف هذه الكلمات المشرقة إلى ما تحلى به ﷺ من قوة اليقين والصبر ضروبًا من المصابرة تزيد في شحنة عزيمته على المضي قدمًا في طريق أداء واجبه نحو هذه الإنسانية المعذَّبة في الأرض؛ ليخرجها من ظلمات العبودية الوثنية بصورها وأشكالها الكافرة بتوحيد الله تعالى، وإفراده بالتعبد له وحده، إلى نور التحرر والمساواة الإنسانية في الحقوق والواجبات.

وكانت كلمات الإيمان الفطري -من الزوجة الأمينة الوفية، وزيرة الصدق، ومأنس القلب والروح، أعقل نساء العالمين- تستشرف أفق مستقبل محمد رسول الله ﷺ في أطوار رسالته بأمل فسيح أفَيَح[1]، موصول بأخص عناصر حياته الخلقية، وأفضل فضائل الإنسانية النبيلة مجموعةً في طبيعة إنسان، ولد بها، وشب واكتهل عليها فكانت معالم لشخصيته بين قومه، يعرفونه بها علمًا مفردًا في اكتمالها فيه، وكماله فيها، ولم يعرف فيهم أحد اجتمعت له هذه الخصال دون أن يشوبها إفراط يخرج بها عن مقاييس الفضائل، أو يلحقها تفريط يقصر بها عن مدى محاسن الشمائل.

والماضي -أبدًا- في حياة المصطفين المخلصين صحيفة تكتب فيها الحياة بقلم الغيب المكنون أنباء معالم مستقبلهم في رسالاتهم، والقادرون على قراءة ما كتب قلم الغيب في صحيفة المصطفين ليقرءوا في ضوئها معالم مستقبلهم أندر في وجودهم من وجود العقل الشفيف الذي يستشف بخاصة إدراكه ما وراء الحجب، فيلمح خيط القدر الحكيم، وهو يربط ماضي من اختير لحمل أعباء الرسالة الإلهية بمستقبله المشرق بنور المدد الإلهي، ولن تظهر لهذا العقل الشفيف في

(١) (فاح) فيحا اتسع وقياسه (فيح يفيح) يقال فاح المكان وفاح البحر وفاحت المفازة وفاحت الدار وفاحت الروضة؛ فهو أفيح وهي فيحاء (ج) فيح . (المجلة)

استشـفافه نقط المحن وفوادح النوازل على رقعة حياة هؤلاء المخلصين ؛ لأن أشـعة العزائم المنبعثة من آفاق رسـالاتهم ، وقوة الحـق الممددة لأرواحهم تغطي بظلالهـا النورانية نقط المحـن ونـوازل البلاء ، فـلا يراها الناظـرون إلا ريثما يتحفز المخلصـون إلى وثبـات الإقدام في طريـق عزائمهم المؤيدة بقوى الحق والخير ، المستضيئة بنور الهدى والرشاد .

تفاضل الأنبياء والرسل بتفاضل رسالاتهم:

ويتفاضـل المخلصون فـي ذلك بتفاضل رسـالاتهم ، كما أخبر بذلك القرآن الكريم فقال الله تبارك وتعالى :

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾

(البقرة : ٢٥٣)

وقال عز شأنه :

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾

(الإسراء : ٥٥)

فيعطَـى كل صاحـب رسـالة مـن الفضـل وقـوة الصبـر والمجاهـدة على قدر رسـالته ، ومـا جعل الله فيهـا من عموم الخير والإصلاح والهداية ، فعموم رسـالة محمد ﷺ تشـريعًا وزمانًـا ومكانًا ، وأجيـالًا ، وإصلاحًا جعلها أفضل الرسـالات الإلهية ، وجعل رسـولها أفضل رسـل الله ، وجعـل أمته أفضل الأمم كما قال تعالى :

﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾

(آل عمران: ١١٠)

وذلك لما أعطيت من فضيلة الوراثة في التبليغ ضمانًا لخصيصة العموم والخلود في رسالته، فكان له ﷺ من فضل قوة الصبر والاحتمال ما تميز به في مستقبل دعوته.

ومن ثم قال ربه تبارك وتعالى:

﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾

(الأحقاف: ٣٥)

فهو ﷺ مكلف أن يجمع إلى صبره صبر جميع أولي العزم من المرسلين، وإلى عزيمته في القيام بحق رسالته قوى عزائمهم في قيامهم بحق رسالاتهم.

ومن هنا قيل له بعد ذكر الأكابر من المرسلين في معرض الثناء عليهم، والحفاوة بهم، وأن الله آتاهم الكتاب والحكم والنبوة:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾

(الأنعام: ٩٠)

فهو ﷺ مأمور من ربه أن يجمع إلى هداه هدى أولئك الأكابر من المصطفين المخلصين.

فالسيدة خديجة رضي الله عنها كانت صفوة الندرة في إلهامها قراءة ما كتب قلم الغيب في صحيفة ماضي محمد

ﷺ من أنباء معالم مستقبله في رسالته، فترجمت بكلماتها النورانيـة عنوانات تلك المعالم في مستقبله نبيًا ورسولاً، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا.

ولهذا كانت السيدة خديجة رضي الله عنها في سجل الرسالة المحمدية نفحة من نفحات المدد الإلهي لم تتكرر ولن تتكرر، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

نظرات تحليلية في كلمات النور:

قالت خديجة لمحمد ﷺ ـ وهي ترد على تساؤله الذي بدا فيه من الإشفاق على مستقبل دعوته التي كلف تبليغها إلى الأحمر والأسود، تستبعد ما عسى أن يكون قد خطر في خواطره ـ: كلا، يا أكمل الكملة، لن يقع لك ما تتخوفه على نفسك الزكية العلية من ضعف عن تحمل أعباء ما شرفك الله به من رسالة الخلود، ولن تعجز عن القيام بموجبات تبليغها؛ لأن الله تعالى هو الذي اختارك لها، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، وقد فطرك على أفضل ما فطر عليه أحدًا من خلقه، فلن يخزيك أبدًا، ولن يحزن قلبك العظيم بوقوع شيء مما تشفق منه وتخافه على نفسك؛ لأن فيك من خصال الجبلة الكمالية ومحاسن الأخلاق الرضية، وفضائل الشيم المرضية، وأشرف

الشمائل العلية، وأكمل النحائز[٢] الإنسانية مايضمن لك الفوز ويحقق لك النُّجح والفلاح، وستظفر بطلبتك وتؤدي رسالتك، ويخلد ذكرك.

النورانية الأولى (صدقُ الحديث):

فأنت الصدوق المصدق، وأنت الصادق الأمين، تصدق الحديث سجية، فلا يُردُّ لك قول بشبهةِ مجانَبة الحقيقة والواقع، فإذا قلت، قالت الدنيا من حولك: صدقت، فما جرب عليك أحد كذبًا، فلا يماريك أو يجادلك فيما تقول ممارٍ أو مجادلٌ.

كيف وقد عرف لك ذلك قومك على صلفهم وعنجهيتهم، وخلافك عليهم في عوائدهم ووثنيتهم، فدعوك بينهم (الأمين) لا يعرفون لك لقبًا غيره، وقد جهروا علانية في جمعهم معترفين له بهذه الخصلة النبيلة، خصلة الصدق في الحديث، شاهدين على أنفسهم له بها، حينما جمعهم لينذرهم قيامًا بأمر الله في قوله تعالى:

﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾

(الشعراء: ٢١٤)

فيما يرويه البخاري عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: «يا صباحاه»

(٢) النحائز: جمع نحيزة والنحيزة الطبيعة يقال هو كريم النحيزة. (المجلة)

فقالـوا : من هذا ؟ فاجتمعوا إليه ، فقـال : «أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سـفح هذا الجبل أكنتـم مصدقي ؟» قالوا : نعـم ، ما جربنا عليك كذبًا ، قال : «فإنـي نذير لكم بين يدي عذاب عظيم» .

وقـد اعترف له بها طاغية الشـرك ، وقائـد جحافله لحربه قبـل أن يسـلم : أبو سـفيان بن حـرب ، كما جـاء في حديث هرقـل عند البخاري ، قال أبو سـفيان يحكي سـؤال هرقل له عـن أحواله وخلائقـه ﷺ : فهل كنتم تتهمونـه بالكذب قبل أن يقـول مـا قـال ؟ قال أبو سـفيان : قلت : لا ، ثـم قال هرقل يسـتعيد أسـئلته لأبي سفيان وأجوبة أبي سـفيان عنها ، على مسمع وبينة من مشهد ركب قريش ليؤكد ما قيل : وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت : أن لا ، فقـد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله .

وقد سـجل القـرآن الكريم على هـؤلاء المعانديـن الذين يعترفـون بالحق ، وهـم يكفرون به جحودهـم وعنادهم بطرًا واسـتكبارًا ، روى الطبري وغيره من حديث طويل أن الأخنس ابـن شـريق التقى بأبي جهـل ، فخلا به فقال : يـا أبا الحكم ، أخبرنـي عن محمد ، أصـادق أم كاذب ؟ فإنه ليـس هاهنا من قريش غيري وغيرك ، يسـمع كلامنا ، فقال أبو جهل : ويحك والله إن محمدًا لصادق ، وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهب

بنـو قصي باللواء والحجابة والسـقاية والنبـوة، فماذا يكون لقريش، فذلك قول الله تعالى:

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام: ٣٣)

وفي حديث أبي ميسـرة أن رسـول الله ﷺ مـر بأبي جهل وأصحابـه، فقالـوا: يا محمـد والله ما نكذبـك، وإنك عندنا لصادق، ولكن نكذب ما جئت به، فنزلت الآية.

وصدق الحديث ينزل من الفضائل الإنسانية ـ التي تتخذها الحيـاة معبـرًا إلـى إدراك أقصى الغايـات للنفوس السـامية، المتسـامية بسـموها عن مطالـب الأرض، وصغـار الأماني ـ منزلة العنوان من الكتاب، يستسـرع الناظر إليه إلى تعرف ما طـوي عليه الكتاب من حقائـق الفكر في متقلبات الحياة، أو منزلة الطرة من ناصية الغيداء، تجذب إليها أنظار المتطلعين الذين يستشرفون أنوار الجمال من آفاق الحياة.

فإذا كان الصدق سـجية في حياة إنسـان كان صدقه الذي لا تشـتبه معالمـه آيـة من آيـات الله على أنه إنسـان اكتملت خصائصه، واتسقت عناصر إنسانيته، فلا تميله الأهواء، ولا يخدعه غرور الحياة، فكلمته فصل، وقوله فرقان مبين.

وهكذا كانت سـجية صدق الحديث في حياة محمد ﷺ، وهـو يعيش بين أحضان مجتمعه إنسـانًا كغيـره من رجالات

قومـه، لا يميـزه عن آحادهم في عيشـه وكدّه في سـعيه ثراء مالـي، ولا بطش بدني، ولا تسـلط فكري، وإنما كان امتيازه بينهم أنه المثـل الأعلى لمعالي المكارم، ومـكارم المعالي، يعرفونه بالصادق الأمين أكثر مما يعرفونه باسمه، لا يمسهم فـي محافل رذائلهم، ولا يقـرب من أندية وثنياتهم، ولا ينزل من علياء اسـتقامته إلى مباءات مفاسدهم وشرورهم، تسامى بنفسـه ـ وهو بينهم كأحدهم ـ عن كل ما يخدش سـيرته، أو يقتحم عليه سريرته، عاشرهم في شوارف حياتهم، وخالطهم فيما يأثرون من مفاخر الفضائل الإنسانية فيهم.

فكانت سـجية صـدق الحديث فيـه عنوانًا علـى ما طوى الغيـب في كتـاب مسـتقبله في رسـالته الخالدة، وكشـفت إشـراقات إيمـان أم المؤمنيـن خديجـة رضـي الله عنهـا عن مضاميـن مـا طواه العنوان مـن جميل صنع الله بـه في أفضاله عليه بإحسـانه إليه، وإسباغه أجل نعمه عليه؛ إذ أرسله رحمة للعالمين.

وكشـفت تجـارب هرقل في مخابر علمـه ومعرفته بالعلم الأول وبشائر العارفين من أحباره ورهبانه عن أثر القوة المعبرة في تقمص الفطرة الصافية لفضيلة صدق الحديث في دلالتها على ما استبان له من صحة دعوة محمد ﷺ أنه رسول من الله إلـى العالمين، فأنطقه الله تعالى بكلمة الحق، حيث قال لأبي سـفيان ومَن معه من قريش في مشـهد من حاشيته وبطارقته:

لـم يكن ـ أي محمد ﷺ ـ ليـذر الكذب على الناس ويكذب علـى الله، ثم قال هرقل تأكيدًا ليقينـه في صدق محمد ﷺ: فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

وكان القضاء لسوابق الأقدار، فبقي هرقل ـ معٍ هذا اليقين بصـدق محمد ﷺ في نبوته ورسـالته ـ مسـربلاً بنصرانيته، مغلولاً بسلاسل ملكه.

وطـارت خديجة رضـي الله عنها بأجنحـة الإيمان، وصدق المحبة، ويقين التوسم إلى ربض عليين، حيث أعد الله لها ما أعده للصديقين، والله يهدي من يشاء من عباده بفضله ويضل من يشاء بعدله وهو العزيز الحكيم.

النورانية الثانية (صلة الرحم):

وأنت يا أبا القاسـم ـ صلوات الله وسـلامه عليك ـ وصول للرحـم، وصلـة الرحم فضيلـة إنسـانية من أفضل وأشـرف الفضائل الاجتماعية التي تربط الأفراد والأسـر بوشـائج الود والإخاء، تقرب البعيد، وتدني القصي، وترد الشارد، وتغسل الأحقاد، وتزرع المودات.

وتتجلـى هـذه الفضيلـة الإنسـانية فـي حسـن المعاملة، وإحسـان العشرة، ومشاركة البر، ومواسـاة الإحسان، وإيثار الفضل في المنافع، مع نقاء السريرة وبهجة العلانية، ومعاونة

المحتاج، وتبادل الخيرات، والعفو عن الزلات.

وهـي أقدر الفضائـل على توثيـق عرى المحبـة بين ذوي القربـى، تجمع القلـوب على الصفاء وتشـد أواصر التآخي، تجمـع حـول مـن يتحلـى بهـا، ويبـذل فـي سـبيلها الجود والرحمة، ينفق ما ملكت يمينه، ويبذل في غير مَنٍّ ولا رياء ـ ذوي رحمه وقرابته، بالتعاطف والتراحم، وسماحة المكارم، فيحبونـه، ويحبون الخير عنده، يدافعـون عنه إذا حاول أحد النيل منه، يبادلونه المنافع في غير أثرة ولا طمع، يخلصون له الود، ويشـاركونه بأساءه ويقاسمونه سرّاءه يفرحون لفرحه، ويألمون لألمه، إن أحزنه شـيء تعرفـوا مصادره فدرءُوها عنه إن اسـتطاعوا، فإن لم يسـتطيعوا كانوا معه فـي أحزانه حتى يسرى عنه.

كذلك كانت هذه الفضيلة الاجتماعية مغروسة في خلائق محمـد ﷺ، تجلـت آثارهـا واضحـة فـي حياته قبـل نبوته، فأحبـه قومه، وأخلصوا الود له، يتنافسـون فـي التقرب إليه، وهم أشـرف أرومات العرب الذين تدين لهم بطونها وقبائلها بالإعزاز والاحترام.

والتفوا حوله بعد نبوته وهم لم يؤمنوا برسالته، وقد صدقوا في اسـتجابتهم لدواعي هذه الفضيلة من محاسـن شـمائله، فدخلوا معه في حصار الشِّـعْب، مَنْ آمـن منهم بدعوته، ومن لـم يؤمن، وصبـروا على بلاء هـذا الحصار الظلـوم وجهده،

واحتملوا فيه ما حملوا من الإجاعة والقطيعة وجهد البلاء، لا لمجرد العصبية القبلية والنخوة الجاهلية، فقد أبى أن يشارك في هذه المحنة القاسية أقرب أقربائه، وهم أشد العرب حمية جاهلية وتعصُّبًا قبليًا، ولكن الذين قبلوا أن يستظلوا بلوائه في الترابط الرحمي إنما صنعوا ذلك تحقيقًا لمقتضيات التواصل مع من عرفوه أوصل الخليقة للرحم، وأبر الناس بذوي القربى، محمد ﷺ الصادق في وده ووصله، الأمين في حفاظه لوشائج القربى والرحم.

وفي حديث مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشًا، فعمَّ وخصَّ، فقال: «يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئًا، إلا أن لكم رحمًا سأبلُّها ببلالها».. ومعنى ذلك أن كفركم وعدم قبولكم لدعوتي، والإيمان برسالتي، لا يمنعني من صلة رحمكم في الدنيا، ولا أغني عنكم في الآخرة من الله شيئًا؛ لأن صلة الرحم ومودة ذوي القربى من أصول المكارم الإنسانية التي لا يحول دونها ـ في شرعة

الفضائل ـ كفر ولا عصيان.

وفي حديث آخر أن النبي ﷺ قال: «بُلُّوا أرحامكم ولو بالسلام» وهذا من لطيف الاستعارة وجوامع الكلم، يقول ﷺ: ندوا أرحامكم وصلوها بالمودة والإحسان، ولو بأدنى ما لا يعجز عنه أحد، ولا تقطعوها فتيبس وتجف وشائجها، قال ابن الأثير في النهاية: وهم يطلقون النداوة على الصلة، كما يطلقون اليبس على القطيعة؛ لأنهم لما رأوا بعض الأشياء يتصل ويختلط بالنداوة، ويحصل بينها التجافي والتفرق باليبس استعاروا البلّ لمعنى الوصل، واليبس لمعنى القطيعة.

ولأمر ما جاء التنويه بشأن هذه المكرمة من أصول مكارم الأخلاق لموضعها من سجايا رسول الله ﷺ في القرآن الكريم في قول الله تبارك وتعالى:

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾

(الشورى: ٢٣)

فقد جعلت الآية الكريمة المودة في القربى وصلة الرحم أقصى ما يطلبه رسول الله ﷺ أجرًا ومكافأة من قومه على ما جاءهم به من هدى وخير، فهو لا يسألهم مالاً يرزؤهم به، ولكنه يطلب إليهم أن يوادوه ويصلوا رحمه بأرحامهم. قال الإمام ابن كثير في تفسير الآية: قل يا محمد لهؤلاء المشركين

من كفار قريش : لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالاً تعطونيه ، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عني وتذروني أُبلِّغ رسالة ربي ، إن لم تنصروني فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة . وأخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال لهم رسول الله ﷺ : «لا أسألكم عليه أجرًا إلا أن تودوني في نفسي لقرابتي منكم ، وتحفظوا القرابة بيني وبينكم» وروى البخاري عنه قال : إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ، فقال : إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة .

وهذا تعظيم لفضيلة صلة الرحم ، وهي خليقة من خلائق محمد ﷺ التي وصفته بها زوجه الأمينة الوفية خُلُقًا قبل أن يبعث للناس رسولاً .

وقد جاءت رسالته ﷺ تحمل في هدايتها ، وآدابها ، وأخلاقها ترغيبًا في التخلق بهذه المكرمة العظيمة بما لم تظفر به فضيلة من الفضائل الإنسانية التي ينتظمها عقد الفضائل الاجتماعية التي تربط وشائج المجتمع بأوثق عرى المودة والمحبة ، فالقرآن الكريم يقرن تعظيم هذه الفضيلة بتعظيم الله جل شأنه فى طلب اتقائه فيقول في مفتتح سورة النساء :

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾

(النساء : ١)

ويجعل قطعها وعدم وصلها عنوانًا على الفساد في الأرض، الذي تتقطع به حبال المودات والتآخي الإنساني، مما تتولد عنه الضغائن والأحقاد وسفك الدماء والمغالبة على المنافع والتظالم في جمعها، فيقول الله عز شأنه:

﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾

(محمد : ٢٢)

وقد فسر النبي ﷺ الآية بما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة، قال: قال النبي ﷺ : خلق الله تعالى الخلق، فلما فرغ منه، قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن عز وجل ـ هذا تمثيل لمقام المستجير بمن يجيره من البغي والظلم ـ فقال: مه: فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة ـ هذا يفسر التمثيل السابق ـ فقال تعالى: ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذاك لك. قال رسول الله ﷺ : اقرءوا إن شئتم:

﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾

وفـي رواية للبخـاري أن الذي قال: اقرءوا إن شـئتم، وتلا الآية، هو أبو هريرة رضي الله عنه.

وقد جعل النبي ﷺ عقاب قطيعة الرحم عِدْلاً لعقاب البغي وفجـور الظلم، أخـرج الأئمة أحمد، والترمـذي، وأبو داود، وابـن ماجـه عن النبي ﷺ قال: «ما من ذنـب أحرى أن يعجّل الله تعالى عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم».

وعلـى الجملـة فهـذا التعظيم لشـأن فضيلة صلـة الرحم التـي جاءت في كلمـات النور، إلهامًا للسـيدة خديجة رضي الله عنهـا وصفًا لمـا تحلّى به محمد ﷺ مـن أصول المكارم التـي لا يخزي الله جل ذكره من حلاه بهـا جبلة وطبعًا- ليس فوقـه تعظيـم لمكرمة من أصول المـكارم الجبلية التي يهبها الله خُلُقًا وطبعًا لمن يشاء من عباده، لتكون له في حياته منائر يهتدي بها إليه المهتدون.

النورانية الثالثة (تَحْمِل الكَلَّ):

وتحمِلُ الكَلَّ؛ كلا، يا أبا القاسـم-صلى الله عليك وسلم- فليفـرغ روعك، ولتهدأ نفسـك، فلن يخزيـك الله أبدًا، ولن يحزنك الله أبدًا، وإنك لبالغ بتوفيق ربك ما كتب لك في لوح الغيـب مـن رفعة الذكر وبلـوغ الأمل، فقد حـلاك منذ خلقك فريـدًا فـي نحائزك ومـكارم أخلاقك بما جعل لـك به في كل

قلب مكانًا من السؤدد والسمو والحب.

أليس قد حلاك بمجامع الرحمة، ومعاقد الرأفة، وعواطف الإحسان والإيثار، والشفقة علىٍ خلقه؟ فجعل في مكارم أخلاقك الكريمة أنك «تحمل الكلّ» الضعيف الذي أعجزته الأيام والليالي، وأقعدته صروف الحياة عن النهوض بحال نفسه، فلم يستطع مزاحمة الضاربين في الأرض سعيًا وراء متطلبات الحياة، ولم يستطع أن يقوم بضرورات عيشه إلا إذا أعانه ذو مقدرة من أهل المروءات وأصحاب المكارم، الذين يفعلون الخير لأنهم يرونه خيرًا، وأنت يا أبا القاسم- صلى الله وسلم عليك- ذلك الكريم الذي فطره الله رءوفا رحيمًا، فلن ترضى نفسك الكريمة وقلبك الرحيم أن ترى ضعيفًا أثقلت كاهله الحياة، فتخلف عن مسيرتها دون أن تمد إليه يد الرحمة بما ينعشه وينهض به في غير مَنٍّ ولا أذى.

والإحسان- أبدًا- آسر لمن يقع عنده موقعه، وهؤلاء الضعفى الذين تنعشهم يدك الرحيمة، وتمسح عن كواهلهم أثقال العيش، وتحيي في أنفسهم موات الأمل، وتنعش في أرواحهم رغائب العمل هم عدة الإيمان؛ لأن الإيمان يملك من رصيد الخير ما يعوض به هؤلاء عما فقدوه من قوة الاقتدار على مماشاة الحياة، وهؤلاء الضعفى أملك للعمل الشكور يردون به الجميل، فالإحسان إليهم بحمل ضعفهم لينهضوا، أو ليحفظوا من الضياع فضيلة مشكورة عندما تحين فرصة

شكرها من غير الجاحدين لفُضلى المكارم والمروءات.

وهؤلاء الضعفى هم أتباع الرسل، كما جاء في حديث هرقل مع أبي سفيان وركب تجار قريش إذ قال مؤكداً حواره معهم: وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرتَ أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل.

وفي هذا التوافق بين ما حمله الإلهام النوراني بالفراسة الصادقة، والتجربة الحكيمة في كلمات وزيرة الصدق الزوجة البرَّة الأمينة السيدة خديجة رضي الله عنها، قبل أن تنتشر في آفاق الحياة أشعة شمس النبوة- وبين ما صدر من نبع المعارف الهرقلية العليمة بما في كتب الأحبار، وأناجيل الرهبان، وأنباء المبشرات بميلاد رسالة جديدة، قد أظل الناس زمانها- دلالة على أن السيدة خديجة كانت تستملي في كلماتها النورانية التي مسحت بها عن جبين رسول الله ﷺ قطرات العرق التي ساقطتها متاعب بشريته، وقد هاضها[٣] روع المفاجأة، وتصور أعباء الرسالة وفوادح تبليغها- صحائف الغيب التي قرأت في سطورها بنور إيمانها الفطري، وصادق فراستها، دلائل ما فطر الله تعالى عليه رسوله وحبيبه محمدًا ﷺ من التخلق بمعالي الأخلاق، وأحاسن الشمائل على معالم مستقبله في رسالته الخاتمة الخالدة.

(٣) هاض العظمَ هيضا كسره بعدما كاد ينجبر. (المجلة)

ولأمرٍ ما ربط الله تعالى بين مكارم أخلاقك الفطرية- يا أبا القاسم- قبل أن يبعثك للناس رسولًا، وبين حياة هؤلاء الضعفى في المجتمع البشري الظلوم، فجعلك- صلوات الله عليك- آسيا لجراحهم، وجابرًا لكسير قلوبهم، أفَيَنْسَون أيادي رحمتك بهم، وهديك الفطري في الإحسان إليهم، بعد أن صرت هاديًا نبيًا، وداعيا رسولا، تدعو إلى الله وحده، وإلى عدله ورحمته، وأنت في هداية فطرتك ومكارم أخلاقك، وفي هداية نبوتك ورحمة رسالتك لا ترجو منهم جزاء ولا شكورا، ولا كانوا هم بمستطيعين لأحد جزاء ولا شكورًا.

هذا- يا أبا القاسم- تدبير الغيب، ما كان لأحد فيه اختيار، فالله تعالى هو الذي فطرك رحيما، خِلْقَة لا كسبًا، وطبعًا لا تطبعًا، وهو الذي جمَّلك بخُلُق الشفقة على الخلق كافة، وهو الذي أوجدك في مجتمعك الذي نَهَدْتَ فيه، ونشأت بين أحضانه، وهو مجتمع يعيش في حياة تجعله أخصب أرض لزرع الإحسان والمكارم؛ لأنه مجتمعٌ جَهِلَ حياةَ العدل، وعاش على جهالة الحياة وروابطها الاجتماعية الفسيحة، مجتمع استأثر بخبراته حفنة من غلاظ الأكباد، يأخذون ولا يعطون، ينهبون ولا يرعوون، فلا قانون يردع، ولا نظام يحكم.

فإذا جاءهم الله بك رحمة وهدى لتنقذ المعذَّبين في الأرض من ظلم الطغاة، وتقيم الحياة الإنسانية على دعائم الإخاء

والمساواة، والرحمة والمواساة، يهجس في خاطرك أنك قد تضعف عن تحمُّل أعباء ما كلِّفْتَه من عظائم الأعمال.

كلا، يا أبا القاسم- صلوات الله عليك- لن يخزيك الله أبدًا، ولن يحزنك الله أبدًا، فأنت قبل أن يأتيك أمر ربك برسالته حملت عبء الضعفى برحمتك الفطرية، فنهضت بهم، وَرُشْتَهم(٤)، ونعشت نفوسهم بالأمل في مستقبل يرفع خسيستهم، فكيف بك وأنت في هدى نبوتك ورسالتك رحمة مهداة للعالمين؟

النورانية الرابعة (تُكسب المعدوم):

وتكسب المعدوم- كلا، يا أبا القاسم، لن يخزيك الله أبدًا، ولن يحزنك الله أبدًا، وكيف تخشى على نفسك الزكية بقاء أثر من رجة المفاجأة الملائكية، وتخشى على نفسك أن تُعوَّق دون تبليغ رسالتك، وأنت حبيب الله، صنعك على عينه، وطبعك على أخلاقه.

أليس قد جعل في أزله أن يكون القرآن الكريم- قبل أن يتشرف الوجود بسماع كلماته الإلهية - خُلُقَك؟ وماذا في القرآن الحكيم غير أخلاق الله، وآدابه، وشرائعه، وحكمه وأحكامه؟

فأنت- يا أبا القاسم صلوات الله عليك- الصورة المتحركة

(٤) يقولون: راشَ صديقه ريشا جمع له ريشا وهو المال والأثاث. انظر تهذيب اللغة. (المجلة)

للقــرآن الناطــق في صمته وســكونه، وأنت- يا أبا القاســم- القرآن المعلِّم حينما تهتز أسلات الألسن بآياته، مضيئة بنور القلوب والعقول والأرواح فهمًا لرسالتك وهديك.

أوَليس من أخلاق القرآن سخاء الجود إلى ذروة الإيثار، وقد وصف به الرعيل الثاني من أخص صحابتك، فقيل فيهم- ثناء عليهم في مواساتهم لإخوتهم في الإيمان من الرعيل الأول:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾

(الحشر: ٩)

فمــا بال الدنيا بك أنت الــذي أدبتهم فتأدبوا بأدبك؟ وقد تأدبت أنت بــأدب الله الذي تولاك- منذ كنت- بفواضل أدبه فأحسن تأديبك؟

ومن في الوجــود الكوني على خُلُقك الفطري الذي فطرك الله عليــه من مكارم الجود؟ فأنت أجــود الناس، ولأنت أجود بالخير من الريح المرسلة، أوَلست أنت الذي تظاهرت عليك بيِّنات الألسن بأنك تعطي عطاء مَن لا يخشى الفقر؟ أولست أنت الذي عرف لك قومك قبل أن يبعثك الله للناس رسولا أن زادَكَ في متحنثك[٥] شِرْكةٌ بينك وبين المساكين؟ لا، بل هو لهم منك، فإن أفضلوا أصبت منه ما يسد الرمق، ففي حديث عبيد بن عمير، وهو يحدث عن جوارك في غار حراء للتحنث

(٥) مكان العبادة والاختلاء للتفكر. (المجلة)

شهرًا أن من تحنثك وتعبدك في جوارك إطعامك مَن جاءك من المساكين.

وقد تعهد الله تعالى هذا الخلق الكريم في أخلاق محمد ﷺ بعد بعثه رسولًا، فكان أكرم من مشى على الأرض، وأجود من أعطى وهو يملك وسيلة للإعطاء، لا، بل إنه يعطي وهو لا يملك، ولكنه يحمل على نفسه، فيستسلف ويستدين حتى لا يقول (لا)؛ ففي الحديث أن رجلًا جاءه ﷺ فسأله، فقال له النبي ﷺ: «ما عندي شيء ولكن ابتع عليّ، فإذا جاءنا شيء قضيناه» فقال عمر: ما كلفك الله ما لا تقتدر، فكره النبي ﷺ ذلك من قول عمر، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله: أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالا، فتبسم رسول الله ﷺ وعرف البِشْر في وجهه، وقال: «بهذا أمرت» وفي حديث مسلم: ما سئل رسول الله ﷺ شيئا إلا أعطاه، فجاءه رجل فأعطاه غنما بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال لهم: يا قوم أسلموا، فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخاف الفقر.

يقول الإمام القسطلاني في (المواهب): وقد كان جوده ﷺ كله لله وفي ابتغاء مرضاته، فإنه كان يبذل المال تارة لفقير أو محتاج، وتارة ينفقه في سبيل الله، وتارة يتألف به على الإسلام من يقوى الإسلام بإسلامه، وكان يؤثر على نفسه وأولاده، فيعطي عطاء يعجز عنه الملوك، ويعيش في نفسه عيش الفقراء، فيأتي عليه الشهر والشهران لا توقد في

بيته نار، وربما ربط الحجر على بطنه الشريف من الجوع.

هـذا هـو محمل نورانية قول السـيدة خديجـة في كلمات النـور التـي استأنسـت بهـا من أخـلاق محمـد ﷺ الفطرية لتزيـده تثبتًا فـي حلبة إنعـام الله عليه برسـالاته، فقالت له: إنك تكسـب المعـدم، أي إنك مفطور على السـخاء والجود والكرم، فتعطي ذوي الحاجة المعدمين ما لا يمكن أن يمنحه غيرك، ولا تسـمح به نفس غير نفسـك العليـة، فأنت أكرم العالمين، وأسخى الأكرمين.

والكرم مَجْمعة للقلوب، ومجلبة لمحبة النفوس، والكريم لا يُضـام، ولا يُخـزى، ولا يُخـذل، يملك بكرمـه زمام محبة الأفئدة، ويستأسـر مَن أكرمهم بإحسانه وفواضله، فيؤثرونه بمودتهم على كل محبوب، ولهذا كان أسـرع الناس استجابة لدعوته ﷺ الفقراء والمسـاكين الذين وجدوا عنده المواساة والإيثـار والرحمة، فأخلصوا لـه، وتقبلوا هديه بروح فدائية، قدمـوا لفدائهـا أرواحهـم، وباعوا لله في سـبيلها أنفسـهم، وتحملـوا من فـوادح الإيـذاء والتعذيب ما لم يكـن في طاقة بشر.

وقـد كانـوا بإخلاصهـم فـي طليعـة المؤمنيـن هـم الأثر الحي- الذي صاحب الدعوة إلى الله في مراحلها وشـدائدها، وانتصاراتهـا- لخُلقـه ﷺ ومـكارم جوده الـذي عبَّرت عنه السيدة خديجة رضي الله عنها في كلمتها النورانية المتوسمة

فـي صحائـف الغيـب بالتأمـل الشـفيف الـذي يقـرأ كتاب المستقبل البعيد في لوح الماضي القريب.

النورانية الخامسة (تَقْري الضيف):

تقري الضيف- كلا، يا أبا القاسم، صلوات الله عليك، لن يخزيـك الله أبدًا، وكيف يخزيك ويحزنـك وأنت في مكارم أخلاقـك التي فطـرك الله عليها أرفع النـاس منزلة في مجتمع تهزه أريحية النبل في سباق المكارم؟.

فلئن كنت يا أبا القاسم، صلوات الله عليك، أسخى الناس في شـمول الجود وعموم الكرم، فأنت أجود من نفسـك في أخص مجالات السخاء الآسر للقلوب والأرواح.

وهـل يملـك النفوس الأبيـة إلا تقليدُها قلائـدَ المجد في سخاء يملك عليها نخوتها التي تتمثل في لقاء الضيف- وهو يُقبل على استحياء- ببشاشة الطبع البسَّام لمغارم المكارم؟.

ومغـارم الجود عند ذوي الطبع الكريم مغانم، إذا انهملت غيوثها على أرض أصيلة التربة طيبة الأصالة، ولكنها خاشـعة ظمئـة، وهل أطيب أرضًا من قلب ضيـف يُقبل طامعًا، ولكنه متردد يخشـى الجفلة(٦)، ويخاف الجفوة، فإذا سـمع مرحبًا تناهت عنده إليه المكارم.

ومـن ثم كان إكـرام الضيف من أعظم الفضائل الإنسـانية

(٦) يقال: جفل منه: انزعج. انظر مختار الصحاح. (المجلة)

الاجتماعية، وهي وإن تداخلت في عموم مكارم الجود لكنها بخصائصها مستقلة الأثر في قوة اجتذاب القلوب، وأسر النفوس، ولا سيما إذا كانت في بيئة مثل البيئة التي نهد فيها محمد ﷺ بيئة الصحاري والجبال، والوديان والقفار، الشحيحة بمطالب العيش، ووسائل الحياة.

ولهذا كانت فضيلة قِرى الضيف موضع منافسة المتنافسين في صنائع المعروف، وكانت مما يتمدح بها أجواد العرب، ويتخذها شعراؤهم ممادح لأجاويدهم، يتخذون بها قلائد من الفضل المأثور في أعناق الذين يقصدون مكارمهم تحببًا إليهم، ونشرًا لحسن الأحدوثة عنهم بين أقوامهم.

والضيف في البيئة العربية عابر سبيل، يبيت هنا، ويصبح هناك، ويتحدث حيث يكون، والحديث مع الناس وإلى الناس فنون، وأحب فنونه إلى الأسماع، وأحلاها في الأذواق ما كان عن المكارم وصانعيها، وروادها، تنفسح لهم القلوب، وتهش لهم النفوس، وتهفو نحو من تحله المكارم ذراها، وتشتاق إلى لقائه ورؤيته، وتتمنى لو كانت من حزبه أو أهله، وتتطلع إلى مشارف مكانه من حسن الأحدوثة، وتتحدث مع نفسها أحاديث الآمال المرجوة أن لو كانت تستطيع أن تكافئه على صنائعه، ولو لم يكونوا هم موضع إسدائها المباشر لأن الخير حبيب إلى كل نفس كريمة، والمكارم أواصر خلقية لا تعرف العصبية لدم، ولا لجنس، ومن يصنع الخير لا يعدم جوازيه.

فإكرام الضيف فضيلة اجتماعية تجمع القلوب على محبة من يتحلى بها في غير تكلف ولا مراءاة، وتستجيب إلى دعوته إذا دعا إلى خير، وترهف الآذان إلى صوته إذا نادى إلى نجدة أو غوث، وتصغي إلى قوله إذا تكلم، وتؤمن على رأيه إذا ارتأى، فهي من أصول المكارم التي تكسب صاحبها مودات القلوب، يحبه من يعرفه ومن لا يعرفه.

فإذْ تذكر السيدة خديجة رضي الله عنها هذه المكرمة في خلائق محمد ﷺ التي نهد بها، وعاش في مجتمعه على التخلق بخلقها، فإنها تقصد إلى أن الله تعالى في جلال حكمته، لا يمنحها إلا لمن يعلم أنه حقيق بآثارها الاجتماعية في التأييد والتوفيق، فيما يدعو إليه من الخير والهدى، فالمتحلي بها مع سائر أصول المكارم لن يخزيه الله أبدًا، ولن يخذله الله أبدًا، وإن محمدًا ﷺ لبالغ- بما طبعه الله عليه من أصول مكارم الأخلاق- ما كتب الله له في لوح حياته من قيامه بحق تبليغ رسالته على أبلغ وأقوى ما تؤدَّى به رسالة إلهية ناطها الله برسول أعده لأعباء هذه الرسالة.

النورانية السادسة (الإعانة على نوائب الحق):

وتعين على نوائب الحق- كلا، يا أبا القاسم، صلوات الله عليك، لن يخزيك الله أبدًا، وكيف يخزيك ربك وهو الذي وهبك- منذ شرَّف الوجود بطلعتك- فطرة جامعة لكل

مكرمـة وفضيلة؟ ولن يحزنك الله أبـدًا، وكيف يحزنك وهو الذي أعدك لحمل عبء أفضل رسالة خالدة، ختم بها رسالاته إلى خلقه؟ أليس الله عز شأنه هو الذي آواك إلى كنف رعايته، وهـو الذي تولى تربيتـك بأخص إنعاماته وفواضل إحسـانه، فأدبـك بأرفـع آدابـه، وهو الـذي طبعـك على أكـرم خلائق الإنسـانية، لتكون هاديًا بإذنـه، وداعيًا إلـى عدله ورحمته، ونصيـرًا للمظلوميـن من عبـاده، معوانًا على إقـرار الحق في موضعه، تردُّ إليه الشـاردين عن ساحته، وتفرضه على الطغاة الذين يبغون في الأرض عتوًا وكفرًا.

كذلك أنت يا أبا القاسـم- صلـوات الله عليك- من أخص صفاتـك أن تعين على نوائب الحق، فطـرة فطرك الله عليها، وخليقة جبلك بها، فكيف يخزيك؟ وكيف يحزنك؟ والإعانة على نوائـب الحق فضيلة الفضائل، ومكرمـة المكارم، فهي أجمع الفضائل لسـائرها، وهي أجمع موارد الخير ومصادره، وهي منقبة مناقب البر والمعروف.

يقول الإمام ابن حجر في الفتح: وقولها: وتعين على نوائب الحـق، هي كلمة جامعة لأفراد ما تقدم من أصول المكارم وما لم يتقدم.

وقـد كانت هـذه الخليقة خُلقًا لمحمد ﷺ منذ شـبَّ عن طوق الطفولة، ومشـى إلى الشباب مشاركًا رجالات قومه في صنع المكارم، فهو ﷺ وكان في عنفوان الشباب، ابن عشرين

سنة- يسمع أن عمه الزبير بن عبد المطلب، يدعو إلى عقد حلف لنصرة المظلوم، والتآسي في المعاش، فاجتمعت له بنو هاشم، وزهرة، وتيم، في دار عبد الله بن جدعان، فيسرع ﷺ إلى مشاركتهم هذه المكرمة النبيلة، يدفعون بها الظلم عن المظلومين، ويعينون على نوائب الحق، ويتعاقدون متعاهدين بالله ليكونُنَّ مع المظلوم حتى يؤدَّى إليه حقه ما بل بحر صوفة، وسمَّت قريش ذلك التعاقد (حلف الفضول).

وقد امتدح محمد ﷺ بعد بعثه رسولًا إلى الناس كافة هذا الحلف، وأخبر أنه حضره في دور إنشائه وشارك فيه قبل نبوته، ففي حديث جبير بن مطعم عند ابن سعد في الطبقات قال: قال رسول الله ﷺ «ما أحب أن لي بحلفٍ حضرته في دار ابن جدعان حُمر النَّعَم، وأني أعذر به، هاشم وزهرة وتيم تحالفوا أن يكونوا مع المظلوم ما بل بحر صوفة، لو دعيت به لأجبت، وهو حلف الفضول».

ومن شواهد هذه المكرمة، ومدد هذه الفضيلة- مكرمة إعانة محمد ﷺ على نوائب الحق، ونصرة المظلوم حتى يراح الحق إليه في رحاله- خبر الإراشي الذي ابتاع منه فرعون قريش أبو جهل إبلًا[٧]، ومطله أثمانها، ابتغاء بخسها أو غصبها، وقد وقف هذا الإراشي على ملأ القوم يستنصر

(٧) هو ابن الغوث أو ابن عمرو بن مالك بن زيد من كيلان سبأ. (المجلة)

غطارفتهم، ويستنجد أكابرهم لينصفوه من طاغيتهم، فدله شياطينهم على محمد ﷺ استهزاء منهم- لما يعلمون من شدة العدواة بينه وبين فرعونهم الطاغية الظلوم، وكان رسول الله ﷺ لا يزال في مبتدأ دعوته، ومطلع رسالته، لم يستجب له إلا قلة قليلة من المستضعفين المضطهدين من أصحابه، وذهب الإراشي صاحب الإبل إلى محمد ﷺ وشكا إليه ظلم قريش في نموذجها الظلوم أبي جهل، قال ابن إسحاق: وخرج رسول الله ﷺ حتى جاء أبا جهل في بيته، فضرب عليه بابه، فقال أبو جهل: من هذا؟ فقال رسول الله ﷺ مجيباً له: (محمد)، فخرج إليه أبو جهل وما في وجهه من رائحة، قد انتقع لونه- وكذلك يفعل جبن المستكبرين- فقال له رسول الله ﷺ: (أعطِ هذا حقَّه) قال أبو جهل: نعم، لا تبرح حتى أعطيه الذي له، فدفعه إليه.

وهذه الحادثة من أعظم دلائل شجاعة محمد ﷺ في الحق وللحق، فهو ﷺ إذ يشكو الغريب المظلوم إليه ألدَّ أعدائه، وأشرسهم خلقًا، وأعتاهم ضراوة وشرّا، وأطغاهم طغيانًا وكفرًا مستغيثًا به- لا يتلبث أن ينهض معه في سرعة وقوة لإعانته على ما نابه من تعرض حقه للضياع، وهذا هو معنى أنه يعين على نوائب الحق.

وإذا تأمل الناظر في هذه الحادثة علم أن لها من الآثار الاجتماعية ما يجعلها وأمثالها عَلَمًا على المكارم التي يتغنى

بها المجتمع فيما يأثره من أصول المكارم لمن نهض بعبئها، فكيف يخزي الله أو يخذل مَن طبعه على هذا الخُلُق الأكرم الذي يجمع القلوب على محبة صاحبه؟

ومن شواهد هذه الفضيلة، فضيلة الإعانة على نوائب الحق ما رواه الواقدي عن يزيد بن رومان، قال: بينا رسول الله ﷺ جالسًا في المسجد مع رجال من أصحابه أقبل رجل من زبيد، يقول: يا معشر قريش: كيف تدخل عليكم المادة، أو يُجلب إليكم جلب، أو يحل تاجر بساحتكم، وأنتم تظلمون من دخل عليكم في حرمكم؟ يقف على الحِلَقِ، حلقة، حلقة، حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ في صحبه، فقال رسول الله ﷺ (مَن ظلمك؟) فذكر أنه قَدِمَ بثلاثة أجمال، كانت خير إبله، فسامه بها أبو جهل ثلث أثمانها، ثم لم يسمه بها لأجله سائم، فأكسد عليّ سلعتي وظلمني، قال رسول الله ﷺ (وأين أجمالك؟) قال: هي هذه بالحَزْوَرَة، فقام رسول الله ﷺ وقام معه أصحابه، فنظر إلى الأجمال فرأى أجمالًا فُرهًا، فساوم الزبيدي حتى ألحقه برضاه، فأخذها رسول الله ﷺ فباع جملين منها بالثمن، وأفضل بعيرًا باعه وأعطى ثمنه أرامل بني عبد المطلب، وأبو جهل جالس في ناحية من السوق لا يتكلم، ثم أقبل إليه رسول الله ﷺ فقال: (يا عمرو، إياك أن تعود لمثل ما صنعت بهذا الأعرابي، فترى ما تكره) فجعل أبو جهل يقول: لا أعود يا محمد، لا أعود يا

محمد، فانصرف رسول الله ﷺ.

وفي هذه الحادثة من دلائل ما تحلى به محمد ﷺ من أصول المكارم جبلة وطبعًا، أنه كان نهَّاضًا لنجدة المظلوم، وخُلُق النجدة شعبة من شعب مكرمة الإعانة على نوائب الحق، فهو ﷺ إذ يسمع استغاثة الرجل الغريب، يُظلم في حرم الله، ينهض لإنصافه لا يبالي أن يكون مَن ظلمه أطغى طغاة قريش، وأشر شريرها.

وهو ﷺ أملك الناس للغضب، لا يندفع مستغضبًا يثير الحفائظ، ولكنه يسلك في إنصاف من ظُلم في حرم الله طريق العدل والحق في هدوء الواثق، فيذهب إلى السوق، وينظر إلى الأجمال، ويساوم صاحبها سومًا يلحقه بالرضا، فيشتريها بالثمن الذي ارتضاه، ثم يبيعها فيربح ثمن بعير منها، ويعطي هذا الثمن أرامل بني عبد المطلب جريًا على نهجه في مكرمة صلة الرحم التي كانت من أصول المكارم التي جبل عليها رسول الله ﷺ ثم يذهب ﷺ إلى الطاغية أبي جهل على سمع الملأ وبصره وهو جالس في ناحية من السوق، ينظر ما صنع رسول الله ﷺ ويسمع سومه للزبيدي صاحب الأجمال، في ذلة ومهانة فلا ينبس بكلمة.

ولكن رسول الله ﷺ لا يتركه يستريح في خذلانه وذلته، بل يذهب إليه محذرًا عاقبة طغيانه ومغبة ظلمه الغُرباء الذين يفِدون على مكة بلد الله الحرام، يبيعون ويشترون، ويقضون

لباناتهم في أسـواقها، فما كان من هذا المسـتكبر في الأرض فجورًا إلا أن تهانف تهانف الأطفال، وتهاوى على نفسـه في مهانـة الجبنـاء، وهو يرى قوة الحق تعلو في إنذار رسـول الله ﷺ وتحذيره أن يعود لمثـل صنيعه الكفور مع الغرباء الذين ليـس في مكة قوة يسـتنصرون بهـا على مـن يظلمهم، وهو يقول: لا أعود يا محمد، لا أعود يا محمد.

والذيـن لا يعرفـون قـدر مـا أكـرم الله به محمـدًا ﷺ من الشـجاعة في الحـق ونجدة المسـتصرخين لطلـب الغوث، والإعانـة في نوائب الحق، يصرفون ما يُرى من هذه الأحداث إلى مجالات العجائب والمعجزات، ولسنا ممن ينفي ما يثبت منها بطريق صحيح.

ولكنـا نرى أن وزن الأحـداث بموازين طبيعـة الاجتماع، وخصائص المجتمع الذي تقع تلك الأحداث في جنباته أسـد وأحكـم فـي مخاطبة الذين يجادلون في آيـات الله اغترارًا بما يتقلبـون فيه مـن علو متعالم واسـتكبار متفلسـف، فمحمد ﷺ فنـن مـن النبعـة الهاشـمية، وهم أعـز وأرسـخ قدمًا في مماشـي العرب وقبائلها من بني مخـزوم قوم أبي جهل، على ما كان لهم من مكانة يسـندها الثـراء المالي المعروف لهم، فلا غرابـة أن يعتز الحق بمحمد الهاشـمي ﷺ، ويذل باطل أبـي جهل المخزومي، فـإن جاءت المعجزة مـع ذلك إكرامًا من الله تعالى لعبده ورسـوله محمـد ﷺ، وتأييدًا له في قيامه

لنصرة الحق، ودفع الظلم، وإنصاف من لجأ إليه يستنصره مستصرخًا لما أصابه في البلد الحرام الذي جعله الله تعالى أمنًا لمن دخله من فجاج الأرض، لا يهاج ولا يفزَّع - كان ذلك توكيدًا لفضل الله تعالى فيما جبل عليه رسوله محمدًا ﷺ من مكارم الأخلاق التي جعلها بحكمته أساسًا لقوة احتماله أعباء رسالته الخاتمة الخالدة، ولله تعالى أن يؤيد رسوله بما شاء من الآيات المعجزة.

النورانية السابعة (أداء الأمانة):

وتؤدي الأمانة - كلا، يا أبا القاسم، صلوات الله عليك، لن يخزيك الله أبدًا، وأنت الذي فطرك الله على مكارم الأخلاق، وجمع لك أصولها التي تتفرع منها سائر الفضائل الإنسانية، فكيف يخذلك في أمره الذي اصطفاك للقيام به من بين سائر خلقه؟ وكيف يخزيك وأنت أمينه ورسوله إلى كافة خلقه، لتبلغهم رسالته وتدعوهم إلى وحدانيته، وتهديهم طريق الاستقامة في حياتهم، ليعيشوا في ظل عدله ورحمته، إخوة متحابين، يتواصلون بالصدق والأمانة في معاملاتهم وتعاشرهم، ويتواسَون بالرحمة والإحسان، ويتعاونون على البر والتقوى لا يتظالمون ولا يتخاونون.

ذلك منهجك في رسالتك - يا أبا القاسم - فمن أين يأتيك الخذلان؟ كلَّا، يا أبا القاسم، فأنت الأمين في السماء، وأنت

الأمين في الأرض، وقد رفع الله لك ذكرك، وسمَّاك على ألسنة قومك ـ ولما تبعث فيهم رسولاً، ولما يكن أمر الإيمان بهدي رسالتك عندهم مذكورًا ـ (الأمين) والأمانة أجمع مكرمة لمكارم الأخلاق، ولن يكون أمينًا قط من يفقد في أخلاقه مكرمة من المكارم، فالأمين هو ذو الخلق العظيم، الجامع لأشتات الفضائل، والأمين هو الكامل في استقامته مع نفسه، ومع جميع الخلق، تجمع القلوب على محبته، ويثق به من يعرفه ومن لا يعرفه، من شهده ومن غاب عنه، وهذه الثقة تظهره على أسرار الناس، فيعرفها كما يعرف علانيتهم، لا تخفى عليه منهم خافية يحفظهم في غيبهم كحفظه لهم في شهودهم، يأنسون به ويركنون إليه في أعمالهم ومصالحهم، ويأمنونه على أعز ما عندهم من ودائعهم المادية والقلبية، تهجس في خواطرهم الفكرة تريد متنفسًا بالكلمة، فيخافونها إلا إذا كانت همسًا لك، فإن رأيت خيرًا أعنت عليه، وإن رأيت شرّا نصحت وحذرت، وحجزتَ دون وقوعه، ويملك أحدهم الثمين من الأشياء، ويخشى عليه الضيعة، فلا يجد موثقًا أشد في نفسه يقينًا من مكارمك، وأنت (الأمين) فيودعه عندك، وقد يخفي أمره عن أمه وأبيه وصاحبته وبنيه.

كلَّا، يا أبا القاسم، صلوات الله عليك، لن يحزنك الله أبدًا في تبليغ رسالتك، وإنجاح هديك وكيف يحزنك وأنت الأمين عند الله وعند الناس؟ وقد كان خلق أداء الأمانة خلقًا

أثيرًا فـي مكارمك، فلم يُعرَف لقب (الأمين) على إطلاقه إلا لك.

وهل يوجد في تاريخ البشرية أقوى دلالة على تميزك بأداء الأمانة من إجماع بطون قريش على الرضا بحكمك وهم يبنون الكعبة المشـرفة أعز مفاخرهم، وقد اختلفوا اختلافًا شرعت فيه السـيوف للقتال، فيمن يتولى وضع الحجر الأسود مكانه مـن ركنه في البناء؟ ثـم توافقوا على أن يُحكِّمـوا أول داخل عليهـم من أبواب الحرم، فكنت أنت يا أبا القاسـم، صلوات الله عليك، محظوظ العناية الربانية، ذلك المُحَكَّم، ولم تكن يومئـذ إلا محمـد بن عبد الله بـن عبد المطلب غصـن النبعة الهاشمية، فلا نبوة، ولا رسالة، فلما رآك القوم تهللوا بالبشر الوثيـق، واطمأنـت قلوبهم الواجفة في صدورهم، وسـكنت إلا من خفقة الرضا، وقالوا بلسـان موحد الثقة والقبول: هذا (الأميـن) رضينـاه حكمًا، وحكمت بحكمتـك حكمًا أطفأ نيران الفتنة، وأصلح ذات بينهم، وجمع شملهم.

فهـل كان ذلك لك إلا بفضل ما فطرك الله عليه من مكرمة المكارم، وفضيلة الفضائل، خلق الأمانة وأدائها؟ ذلك الخلق الذي تعارفـه لك الناس في بلدك الحرام، عامتهم وخاصتهم، فجعلوك موئل ودائعهم، ومثوى أسـرارهم، فوسـعتهم صدقًا وأمانـة وبرّا، روى الإمام أحمد مـن حديث عليّ رضي الله عنه

قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ جمع النبي ﷺ من أهل بيته فاجتمع له ثلاثون، فأكلوا وشربوا، وقال لهم: (من يضمن عني ديني ومواعيدي، ويكون معي في الجنة، ويكون خليفتي في أهلي؟) فقال رجل: يا رسول الله أنت كنت بحرًا، من يقوم بهذا؟.

وفي أحاديث الهجرة عند ابن إسحاق أن النبي ﷺ أخبر عليّا بمخرجه، وأمره أن يتخلف بعده حتى يؤدي عنه الودائع التي عنده للناس، قال ابن إسحاق: وليس بمكة أحد عنده شيء يخاف عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته.

وفي هذين الحديثين أصدق دلالة على أن مكرمة أداء الأمانة بصورتها الغامرة القوية التي لم تكن بها عند أحد من البشر فضيلة خلقية كانت في طبيعة محمد ﷺ التي ولد بها، ونهد عليها، ونشأ مفطورًا بفطرتها، لم يكسبها بنبوته ورسالته، وإن تكن النبوة والرسالة قد وثقتاها في خلقه، وزادتا من مظاهرها في أعماله وسلوكه، وجعلتاها دعامة من دعائم دعوته، وأساسًا لهديه في رسالته.

فحديث علي رضي الله عنه عند الإمام أحمد ـ ورواه بمعناه بألفاظ تختلف قليلاً أو كثيرًا، جمهور المحدِّثين ـ ظاهر في أن قصته كانت في مطلع الدعوة، وأوائل خطواتها، وأن مكرمة أداء الأمانة بقوتها الغامرة كانت معروفة بصورة عريضة عند كافة الناس في مجتمع محمد ﷺ الذي عاش

فيــه خلقًا له، قبــل أن يبعث للناس رســولاً، وأنه كان في هذه المكرمة وســيع الباع، لا يدرك ذرعه، عظيم الأكناف كالبحر لا يدرك عمقه، ولهذا لما قال رســول الله ﷺ للقوم ما قال في شــأن دَيْنــه ومواعيده، قال لــه رجل من القوم، ينفــي أن أحدًا من الناس يســتطيع أن يضع قدمه في ساحة مفاخر المكرمات موضع قدم رسول الله ﷺ: يا رسول الله أنت في مكارمك بحر، من يقدر أن يقوم مقامك في دَينك ومواعيدك؟ اســتعظامًا لما كان متصفًــا به من المكارم، لا ســيما مكرمة أداء الأمانة التي جعلت منه موئلاً لأمانات الناس وودائعهم.

وحديث الهجرة ظاهر في بيان أن رسول الله ﷺ، وهو يمر بأحــرج مرحلة مرت بها دعوتــه، وأصعب موقف مر عليه في حياته، موقف ينتهي في أدمغة أحلاس الشرك وعبيد الوثنية، وتفكيرهم في التخلص من هــذه الدعوة وصاحبها إلى أخبث تدبير ماكــر، تحوكه أحقادهــم، ومرحلة تنتهــي في نظرهم إلى أبشــع كيد متآمر على حياة أطهــر من أقلَّته الأرض وأظلَّته الســماء، محمد الأمين صلوات الله وسلامه عليه، أجمع فيها غطارفــة الإجــرام، وطغاة الكفر على اغتيالــه، وهو نائم على فراشــه فــي بيته؛ لأنه يدعوهــم إلى توحيــد الله، وإقامة منائر عدله، ونشــر آثــار رحمته فيأتيه النبأ من الســماء، ويســتعد للخــروج مــن داره وبلــده مهاجــرًا إلى حيــث يجد متنفسًــا لدعوته، وأرضًا طيبة لنشــر رسالته، وقلوبًا نقية لتقبل هديه،

ونفوسًا طاهرة مستعدة لنصرته ـ كان موضع ثقة لدى سائر من عرفه مؤمنًا برسالته أو غير مؤمن بها، ولكنهم جميعًا وأكثرهم إلب عليه، يحاربون دعوته ويؤذونه وأصحابه ـ يأمنونه على أسرارهم وودائعهم من كل ما يخافون عليه، فهو (الأمين) منذ كان فيهم، لم تغير دعوته التي نافروه من أجلها من أمانته، بل زادت هذه الدعوة الخيرة المباركة الموحِّدة خلق الأمانة عنده ظهورًا ورسوخًا.

وهاهو ذا يفارقهم مخرجًا منهم؛ لأنه لم يجد فيهم بصائر تهتدي بهديه، بل لم يجد عندهم سلامًا يطمئن إلى العيش في ظله، ويخلُّوا بينه وبين الناس يبلغهم دعوته، وينشر فيهم هديه ورسالته، وعنده أمانات وودائع لأعدائه وغير أعدائه، ولا بد في شرعة المكارم من ردِّها إليهم، فيخلّف صفيه ورضيع تربيته عليّا رضي الله عنه بعده ليؤدي عنه الودائع والأمانات التي عنده للناس.

فراسة الإلهام في كلمات السيدة خديجة:

قال العلماء: إن خديجة رضي الله عنها لوثيق معرفتها بأخلاق محمد ﷺ الفطرية التي خبرتها فيه بتجاربها وفراستها، وبما كان يخصه به مجتمعه من الإكبار وحسن الأحدوثة ـ أقسمت على أن الله تعالى لن يخزيه، وأكدت ذلك بلفظ التأييد، واستدلت بوحي عقلها الرصين على ما أقسمت

عليه بأمر استقرائي، فوصفته بأصول مكارم الأخلاق، قالوا:

وإنما كان ما ذكرته خديجة أصول المكارم لأن الإِحسان إما إلى الأقارب كما في صلة الرحم، وما يتفرع عنها من التعاطف والتراحم، أو إلى الأجانب، وذلك فيما عدا صلة الرحم وفروعها، من صدق الحديث وأداء الأمانة، وكسب المعدوم لمن يحتاج إلى المعونة من الضَّعَفَة، وإما على من يستقل بأمره، كما في مكرمة الإِعانة على نوائب الحق، أو من لا يستقل بأمره كما في حمل الكَل الضعيف الذي لا يقوم بأمر نفسه.

وهذا الذي ذكره العلماء إجمال لما بسطناه في تحليل الكلمات النورانية التي تضم بين جوانحها من الحقائق والمعاني الكثير مما لا يمكن استقصاؤه، وهي التي استنبطت خديجة من اتصاف محمد ﷺ بحقائقها أنه لن يتعرض في حياته للخزي قط. لأن الله تعالى فطره على مكارم الأخلاق، وضربت المثل بما ذكرته من أصولها الجامعة لكمالاتها.

ولم تعرف الحياة في سنن الكون الاجتماعية أن الله تعالى جمّل أحدًا من عباده بفطرة الأخلاق الكريمة، ثم أذاقه الخزي في حياته، ومحمد ﷺ بلغ من المكارم ذروتها، فطرة فطره الله عليها، لا تُطاول ولا تُسامى.

وقد كانت كلمات السيدة خديجة رضي الله عنها نوعًا من فراسة الإِلهام الذي ينظر إلى ما وراء الحجب، خففت بها عن

رسول الله ﷺ ما شعر به من آثار المفاجأة الرهيبة، وقد آب إليها من خلوته ومتعبده في حراء، فرأت منه ﷺ حالاً من مشقة الجهد، لم تكن تراها عليه من قبل في أوباته إليها، ليتزود لخلوته، ويجدد ببيته وولده وزوجه عهد الحنان والحب الذي يعطيه أفضل ما يعطي عامل من عوامل القوة النفسية من مدد يعينه على تحمل مشاق الوحدة في خلوته التي أحبها أشد الحب، لما يجد فيها من مجال لسبحات روحه وفكره في أجواز ملكوت الله، وجلال بدائع صنعه، وجلس إليها بعد أن هدأت نفسه، وحدثها وحدثته، وسمعت منه جديدًا، لم تكن من قبل تسمعه منه، وكان في هذا الحديث نغم هامس بروحانية جديدة، تتلمس دفء الحنان في أحضان الوفاء.

فهو ﷺ منذ بلغ سن الرجولة كانت بشائر الغيب وإرهاصات النبوة تتوالى عليه قبل أن يُنبأ، وكانت خديجة رضي الله عنها على علم بالكثير من ذلك، وقد ثبت أنها رأت الغمامة تظلله ﷺ، وهو قادم بتجارتها من الشام، قبل أن يتزوجها، وحدثها غلامها ميسرة -وكانت قد بعثته معه ليقوم بخدمته في سفره- بما رأى وما شهد من الأعاجيب والآيات التي وقعت له ﷺ.

ثم نُبئ ﷺ بوحي الرؤيا الصادقة، يراها في منامه، فتجيء إذا استيقظ مثل فلق الصبح جلاءً ووضوحًا وإشراقًا، وتتابع وحي النبوة عليه في مراتبه المنامية والمبشرات، ولم يكن

يبـدو عليه من مشـقة الإجهاد وتأثر بشـريته مثل ما بدا عليه اليـوم، وقـد جاءهـا يرجف فـؤاده وترعـد بـوادره، ويقول: زملوني دثروني.

وكانـت آمـال خديجـة رضي الله عنهـا منذ صـارت زوجة محمـد ﷺ فـي فضل الله عليـه أعظم من أن تقـف عند وحي النبـوة برؤيا منام، بل كانت مشـاعرها تحلـق حوله في آفاق تطلعاتهـا إلى تجليات الملأ الأعلى له ﷺ في لقاء المواجهة ووحي اليقظة.

وهاهـو ذا صلوات الله عليه اليوم يبعث للعالمين رسـولاً، فيجيئـه الحق، ويفجؤه الملك رسـولاً إليه من ربـه، وإذا هو أمين الوحي جبريل عليه السلام، جاء مستعلنًا في يقظته بعد أن جاءه ممهدًا في منامه، ومحمد ﷺ مسـتغرق في سبحات تفكيـره، وحيد فـي خلوته، لا يتوقع مما وقع له شـيئًا، وإذا بالمفاجـأة الأخـرى تأتي بعـد مفاجأة البغتة فـي دخوله عليه خلوته بغير مهلـة، فيقول له: اقرأ، وأنَّى لمحمد صلوات الله عليه، وهو الأمي الذي ما عرف القراءة قط في حياته أن يقرأ؟ ومـاذا يقرأ؟ وكيف يقرأ؟ فما كان منه ﷺ إلا أن يقول الحق مبينًا عن ذات نفسـه، ذاكـرًا حقيقة حاله بالنظر إلى ما طلب منه، وهو أمر لا يدخل في استطاعته: (ما أنا بقارئ).

وجـاءت المفاجأة الجديـدة في عنفها وشـدتها، ويضمه الملـك إليـه ضمة غطه بها غطا بلغ منـه أقصى ما في طبيعته

مـن الطاقة والاحتمـال، وخلص جبريل الأميـن بروح محمد الأمين صلوات الله عليهما نجيّا ليستفرغ بشريته، ويفرغ في روحانيتـه مزيدًا مـن أنوار الملأ الأعلى ليخفف من الوشـائج المادية التي تقيد سـبحات روحه في إطارها البشري، لترتفع روحانيته بإشراقها المتجدد إلى ذروة المجانسة لطبائع الملأ الأعلـى، لتتلقـى أحاديث السـماء في مشـافهة الملك ولقاء اليقظة، واكتمال الحس والشعور.

ثم عـاد إليه يطلب منه أن يقرأ، والموقف عند رسـول الله محمد ﷺ هو الموقف منذ بدأت المفاجأة وكانت إجابته هي إجابته (ما أنا بقارئ) وعاد إليه بالغت والغط، وطلب القراءة ليظهـره من أول وهلة على سـر رسـالته ليكـون فيها الهادي العليم والرسول المعلم.

وسـر رسـالة محمد ﷺ المسـطور في لوح الوجود ـ كما أسلفنا ـ هو العلم بأوسع وأعمق ما يتصور العلماء والمفكرون مـن أي أنحاء الحيـاة، ومن أي جوانب الكون، وعلى أي نهج في التفكير.

ولهذا قال له جبريل عليه السلام ـ بعد أن أنهى ما أرسل به إليـه في أول لقاء المواجهة بوحـي اليقظة من إعداده روحانيّا للنفـوذ من حجـب الغيب إلـى الحقائق العليا، مسـطورة في صفحـة الوجـود ـ : اقـرأ، وأنت أنـت علـى خصيصتك في أخص أوصافك من نعت (الأمية) مسـتعينًا باسم ربك الخالق

المبدع، الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وهو أعز خلقه وأكرمهم، وجعله بما علمه سيد الحياة المسخرة له

﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (القلم: ٣-٥)

فكان هذا بيانًا لما طُلب منه مكررًا مؤكدًا، وهو تحصيل حقيقة القراءة، دون نظر إلى الأسباب المألوفة عند القارئين المعلَّمين العالِمين، مستعينًا باسم من سبق إليك إحسانه، فربَّاك على موائد فضله وإنعامه، ورعاك بكرمه قبل أن يتشرف الوجود بطلعتك، وهو ربك الأكرم الذي تجلت مظاهر أكرميته في ظلال أسرار رسالتك العليمة المعلّمة، وهو الذي علَّم بالقلم من تأهَّل بفكره ليكون في زمرة العالِمين، وذلك هو الإنسان مُظهر الإبداع الإلهي الأعظم في الوجود، فقد علَّمه ما لم يعلم، وعلَّمك أنت، وجعلك مظهر الإشراق الروحاني الأكمل ـ كما علَّم الملأ الأعلى ـ بغير قلم ولا مداد، خصيصة لك، لتكون أميتك المظهر الأعظم في إعجاز رسالتك المعلِّمة، وجعل علمك بغير قلم مددًا لمن تعلموا بالقلم، تعلموا مما عُلمت، وهم صفوة الإنسانية، بل صفوة الوجود كله، فالتعليم بالقلم أعظم مظاهر الكرم الإلهى السابغ، ومِن ثم كانت المنَّة بالتعليم بالقلم أعظم منن الله تعالى على

الإنسان في الحياة، وكان الامتنان بها عليه في أول ما نزل من القرآن الكريم.

يقول الإمام قتادة: القلم نعمة من الله عز وجل عظيمة، لولاها لم يقم دين، ولم يصلح عيش، فدل على كمال كرمه بأن علّم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبَّه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دُوِّنت العلوم، ولا قُيدت الحكم، ولا ضُبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ولا كُتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي ما استقامت أمور الدين ولا أمور الدنيا.

تحليل تفسيريّ لأول آيات نزلت من القرآن الكريم:

فقول الله جل ذكره في أول كلمة نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ أمر بتحصيل القراءة، وتحقيقها في وجود الحياة، وقوله عز شأنه: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ جملة مستأنفة لإزاحة ما اعتذر به ﷺ من قوله: (ما أنا بقارئ) وهو يريد أن القراءة شأن من يتعلمها، وأنا أمي ما كنت قارئًا قط، فقيل له: اقرأ، وربك الذي أمرك بتحصيل القراءة وتحقيق وجودها هو الأكرم، فالأمر هنا بتحصيل القراءة تأكيد للأمر السابق في قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ والاستئناف بقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ توجيه له ﷺ بأن يستمد العون

علـى تحمل أعبـاء حياته الجديدة في رسـالته التي سـتكون بمقتضـى إرهاصـات المفاجـأة وشـدتها مليئـة بالمفاجآت الفادحة، ومفعمة بكل جديد شاق، ولعل مِن أشقها وأصعبها العلـم بكل ما ينبغى أن يعلم وهو خصيصة رسـالتك المميزة لطبيعتها الهادية المنيرة ـ من ربه الأكرم الذي تعهده بتربيته وهـو في غمرات مجتمعه، فصفاه من غلِّه، وطهَّره من أدرانه، برعايته له في نشـأته وليدًا في مهده، فهيَّأ له رضاعًا في أكرم بادية في خيـر بيوتها خُلُقًا، وآواه طفلاً يتيمًا، وتولَّاه بتأديبه وتربيتـه، وزرع محبته في قلوب جـدِّه وعمومته، فحنوا عليه حدبًا وإشـفاقًا، وكنفـه بكنفه، فكان شـابًا أريبًا، وحلاه في رجولتـه بأكمل خصائـص الفضائل، فكان فـي قومه الصادق الأمين، وأعدَّه لحمل أعباء رسـالته، وهو مُستغرق في وحدته بفكره وعقلـه وروحه في جلال الملكوت لا يعلم ما يُراد به، حتى أبرزه للحياة دُرَّة يتيمة في كمال صفاته وأخلاقه ومكارمه وإشراق روحه، واستخلصه لنفسه نبيّا حبيبًا واصطفاه رسولاً رحمة مهداة للعالمين.

حديثٌ هامس بشرح عظمة عبء الرسالة:

وحدَّث رسـول الله ﷺ زوجـه الوفية الأمينـة عن خلجات ضميـره وما هجس في حنايا نفسـه وما شـغل تفكيره إزاء ما ينتظره في مستقبل حياته من عظائم أمور، وكبريات الأحداث،

وما يتطلبه هذا المستقبل من عمل دءوب، وعزيمة صارمة، يجب أن تقهر الأحداث بقوتها، وصبر مشمر عن طاقة من الاحتمال دونها طاقة الأرض والسماء، وقد مضى وقت النوم ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ﴾ (المدثر: ١).

ونهض ﷺ مستجيبًا لأمر ربه، مشمرًا عن عزيمة لا تفل، نهوض من لا يعرف السكون إلا متحفزًا ليتحرك، ولا يتحرك إلا وهو يفكر في مسالك ما حُمِّله من أعباء رسالة، ليس كمثلها رسالة من رسالات مَن سبقه من الأنبياء والمرسلين.

فالناس كلهم في مشارق الأرض ومغاربها مَن دنا منهم ومن بَعُدَ هم أمة دعوته، مُكلَّفٌ تبليغ رسالته لهم، واجب عليه أن يدعوهم إلى الإيمان بها ما بلغتهم دعوتها

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾

(الأنعام: ١٩).

فهو رسول إلى العالمين، منذ اللحظة الأولى لتنزل رسالته ﷺ.

أهداف الدعوة ومقاصد الرسالة

ودعوته تستهدف إخراج الناس ـ كل الناس، بل إخراج الحياة بما فيها ومن فيها ـ من ظلمات الشرك وأوضار(٨) الوثنية

(٨) (الوضر) الدرن والدسم والوسخ من الدسم أو غيره (ج) أوضار وفلان ذو أوضار خبيث. (المجلة)

في جميع صورها وأشكالها إلى نور التوحيد وإخلاص العبادة لله تعالى وحده، مطهرين في عقائدهم وأفكارهم وتعبداتهم، نقية عقولهم وقلوبهم من دنس مواريث الآباء والأجداد، مصفاة أرواحهم من ران الشرور والفساد، وإخراجهم من ظلمات التظالم والفساد إلى نور العدل والإصلاح.

وتستهدف دعوتُه ﷺ إلى جانب ذلك تخليصَهم من رذائل الأخلاق، ليكونوا ربانيين في حياتهم وأخلاقهم، متحلين بالفضائل الإنسانية الكريمة، مستقيمي السلوك، خيّرين في أعمالهم.

وتستهدف دعوتُه ﷺ تخليصَهم من شراسة القسوة الطاغية التي يصب المتجبرون في الأرض سياط عذابها على الضعفاء والمستضعفين، اغترارًا بما في أيديهم من لُعَاعَات الدنيا(٩)، واستجابة لما في دخائل أنفسهم من شرور الأنانية والاستئثار.

وتستهدف دعوته ﷺ تخليصهم من مساوىء الأنانية، وسيطرة الغرائز المادية في رغائبها وشهواتها، لتقيمهم أئمة في مشاهد الإيثار والإفضال في جو من الإخاء الإيماني الذي لا يعرف: هذا لي، وهذا لك، ولكنه يعرف ما يقرؤه في دستور رسالته الخادة ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠)

(٩) اللُّعاعة: بقلة خضراء ناعمة تشبّه بها زهرة الدنيا ونعيمها. (المجلة)

والأخوّة معناها المشاركة في جلب المنافع ودفع المضار، فالحياة ـ في شرعة الإخاء الإيماني ـ للناس جميعًا، لا يستأثر بشيء منها أحد، فمن احتاج منها أخذ بقدر حاجته وطاقته، ومن وجدها في يده جاد بها وأعطى.

هذه أهداف رسالة محمد ﷺ، وغاياتها ومقاصدها، جعلت العلم بجميع فنونه المادية والفكرية، والمعرفة بأنواعها التجريبية والعقلية وسيلة تحقيقها، لكن المجتمع البشري الذي أرسل فيه وإليه محمد ﷺ بجميع أممه وشعوبه، وجماعاته وأفراده لم يكن يعرف هذه الأهداف، ولا يحاول أن يعرفها، بل كان هذا المجتمع يعيش على نقائض هذه الأهداف الإصلاحية، التي تطلب في قوة حازمة وعزيمة صارمة من حاملي أمانتها، ووارثي تبليغ رسالتها أن يعملوا بكل ما أوتوا من طاقات وقوى على كسر حدة تلك النقائض، ليخرجوا الحياة بمن فيها وما فيها من ظلمات الأثرة وظلم الأنانية إلى نور الإيمان والهداية، وعدل المساواة والمواساة، بتطبيق دستور هذه الرسالة الخالدة في واقع الحياة، فكيف السبيل إلى ذلك؟ وما المخرج؟

فداحة العبء:

عبء فادح، وتكليف شاق، وجهد مثقل، ومفاجأة دون تمهيد، ولكنه تشريف دونه كل شرف في هذه الحياة، فهل

فـي طاقة محمد ﷺ ، وهو وحيد ، محدود القوى البشـرية أن يقـوم بهـذا العبء على بهظـه ؟ وهل في قدرتـه ﷺ احتمال مشقة هذا التكليف على رهقه ؟ وهل ، وهل ، وهل ، مما توارد على خواطره وشـغل حيزًا من نفسه الشريفة ، وتحدث به إلى زوجه ، ومأنس نفسـه ، الوفية الأمينة السيدة خديجة رضي الله عنهـا ، حديث المتطلع إلـى توكيد يقينه فـي فضل ربه ممن عرف سـمو عقلها وفضل حبها ، والثقة بفراستها وتوسمها ، وسوابق تطلعاتها فيما كانت تشجعه وتسري به عنه .

وكانت منـه ﷺ في حديثه إلي زوجه الكلمة المعبرة أبلغ وأصـدق تعبير عن كل هاجس هجس به ضميره ﷺ في صدد ارتياعه من مفاجأة الغار وتحمل أعباء الرسالة : (أي خديجة : مالي ؟ لقد خشيت على نفسي) هكذا رواها مطلقة عن ذكر أي سـبب لخشيته على نفسه ، ودواعي تلك الخشية شيخ الدنيا فـي صدق الروايـة ، وفقه الحديث النبوي الإمـام البخاري في ثلاثة مواضع من جامعه الصحيح : في باب (كيف بدأ الوحي) وفي كتاب التفسير (سورة اقرأ) وفي كتاب (التعبير) ، فمن أين تسللت التقحمات التفسيرية لدواعي الخشية وأسبابها ، ومـن أي باب دلفت إلى سـاحة القداسـة النبويـة التخرصات التفسـيرية بالجنون تارة ، وبالكهانة أخرى ، ومحمد ﷺ نبي أوحـي إليه بنـوع أو أنواع من مراتب وحـي النبوة قبل حادث الغار بثلاث سـنوات – ومـع النبوة العصمـة – وحادث الغار

هو الذي تحدث عنه إلى زوجه، وقال لها: (لقد خشيت على نفسي) بل لقد كان في بعض مراتب وحي النبوة بالرؤيا الصادقة أنه ﷺ - كما في حديث عبيد بن عمير - جاءه جبريل في منامه وأقرأه عين الآيات الخمس من أول سورة (اقرأ) التي أقرأها له في وحي اليقظة في غار حراء، مصحوبة بالغت، وتكرار طلب القراءة.

فهل يقيم العلم الصحيح وزنًا لهذه الآراء التفسيرية والأقاويل التخرصية التي يقذف بها أصحابها - مهما كان شأنهم بين أهل العلم، وهم ليسوا بمعصومين - هنا وهناك، فتصيب النبوة في قداستها، ثم يأتي من بعدهم خلف حسنت نياتهم في قائلي تلك الأقاويل، فيتأولونها، ويتعسفون في التأويل، لتخريجها تنزيهًا لقائليها عن وصمة الخطأ في الرواية والنقل، أو الخطأ في قبول وتسليم ما قيل دون تأمل في معناه، وما يترتب عليه من عواقب وخيمة؟.

فهل كان مقام أصحاب تلك الأقاويل التخرصية في تنزيههم عن وصمة الخطأ والتماس المخارج لأقاويلهم أجل وأعظم من مقام النبوة في صونها وتنزيهها عما يخدش قداستها ويمس جلالها؟

وإذا كان النبي - أي نبي - معرّضا لهذه التقحمات التخرصية بعد تحقق نبوته بوحي ثابت فماذا بقي له من شرف الاصطفاء وقداسة النبوة وما يجب لها من العصمة

عن المزالق التي تهز الثقة بها؟ وكيف تمكن الثقة به وبما يقوله مبلِّغًا عن الله تعالى ما دامت هذه التخرصات تلاحقه في نبوته؟.

إننا لا نتردد في الجهر بالقول: أنه يجب ألا يقام لهذه التخرصات الاحتمالية - التي لم تستند إلى قول قاطع قاله رسول الله ﷺ - وزن في شرعة العلم ومنهاج النبوة، وسنن الله تعالى مع النبيين والمرسلين.

ولنا في بعض الأجلة من حذاق المفكرين في معارف الإسلام ومبادئه أسوة في الجهر ببطلان هذه الأقاويل المتخرصة، ولكن من غلب عليهم حسن الظن وسلامة الطوية تشبثوا بهذه الأقاويل، وراحوا يتأولونها ويخرّجونها، ويلتمسون لها التوجيه، يقول الإمام ابن حجر في الفتح: والخشية المذكورة اختلف العلماء في المراد بها على اثني عشر قولًا، وقد ساقها ابن حجر سردًا دون توجيه أو نقد، فيما عدا القول الأول، فقد نقده وأيد رأي أبي بكر بن العربي الفقيه في قطع الحكم ببطلانه، ولكن ابن حجر ساق كلام الإسماعيلي في توجيه هذا القول الباطل وقبوله، ونحن نورد هذه الأقوال مع التعليق والنقد والتوجيه لما يمكن أن يوجه منها، ونقف مع القول الأول بالبحث والإبطال؛ لأن الإمام ابن حجر لم يقتصر على موافقته وتأييده لأبي بكر بن العربي الفقيه في قطع الحكم ببطلان هذا القول، ولو فعل لكان في

اقتصاره على البطلان تحصين عامة الباحثين من بعده عن الانزلاق في هاوية الاستسلام لهذه الأباطيل، ولكنه ساق بعد تأييده لرأي ابن العربي كلام الإسماعيلي في الدفاع عن هذا القول المتخرص، وتسويل قبوله.

والإسماعيلي إمام له مكانته المرموقة، وشهرته بين أهل العلم، لاسيما بين المحدثين ورجال الرواية، وحسبه أن الحاكم يقول عنه: كان واحد عصره، وشيخ المحدثين والفقهاء وأجلّهم رياسة.

وهذه المكانة العلمية لهذا الإمام هي التي توجب علينا مناقشة كلامه، وإبطال ما ينبغي إبطاله، خشية أن يستغله أعداء الإسلام من الملاحدة متشبثين بمكانة الرجل في فضله وعلمه، ويفتح لهم منافذ الطعن في النبوة ورسالات الرسل عامة، ورسالة الإسلام خاصة، وأعداءُ الرسالات الإلهية في هذا العصر المادي الكفور أكثر من أن يحصوا دولًا وشعوبًا، وأفرادًا وجماعات، وحكامًا وزعماء، وهم أجرأ على الباطل الجحود وأكفر، ولا يزال الإسلام يعاني من تعصب بعض المستشرقين المتسترين بغلالات العلم والبحث ومن ورائهم سائر المبشرين بالصليبية الحاقدة على الإسلام والمسلمين، ولهؤلاء وأولئك مريدون وتلاميذ مقلدون، من أبناء جلدتنا، يتعالون تعاليًا، ويتهافتون تقليدًا، ينفخون في أبواق مدربيهم، وينشرون سمومهم في أفئدة الشباب المسلم

ليفسدوا إيمانه وعقيدته.

لأن هذا الشباب ليس له من وسائل الحماية لإيمانه وعقيدته وأفكاره ما يمكنه من نقد الفِكر الملحدة، وهو في كثرته الكاثرة لم يدرس مبادئ الإسلام في عقيدته وشريعته، ولم تتح له فرصة لهذه الدراسة، فجامعات الوطن الإسلامي شرقاً وغربًا لا تدرس الإسلام على حقيقته ولا تعرفه، وأساتذة هذه الجامعات تلاميذ أولئك المتعصبين ضد الإسلام، غرسوا في أفئدتهم الإلحاد الجهول، فلقنه هؤلاء لتلاميذهم الأغرار المخدوعين.

قال ابن حجر في سرد أقوال العلماء في المراد بالخشية:

أولها - الجنون، وأن يكون ما رآه من جنس الكهانة، جاء مصرحًا به في عدة طرق، وأبطله أبو بكر بن العربي، وحق له أن يبطل، لكن حمله الإسماعيلي على أن ذلك حصل له من قبل حصول العلم الضروري له أن الذي جاءه ملك، وأنه من عند الله تعالى.

وهذا الكلام بسياقته صريح في أن ابن حجر جعل الجنون والكهانة أمرًا واحدًا، وقولًا واحدًا، وهما في الواقع أمران، وقد يمكن اعتبارهما قولًا واحدًا، قال بهما فريق من البُله الحمقى، على معنى تجويز هذا، وهذا، أي أنه ﷺ خشي على نفسه الجنون، أو خشي أن يكون ما رآه في الغار من جنس الكهانة، والجنون لا يجتمع مع الكهانة في شخص واحد، في

زمن واحد ؛ لأن الكهانة دهاء مشعبذ[١٠]، يضحك من الناس ويشعوذ عليهم، فصاحبها شرير من أغزر الناس دهاء ومكرًا، والجنون ذهاب العقل واضطراب وتخليط في التفكير والعمل، ولو كانت الكهانة جنونًا ما استطاع أصحابها أن يضحكوا من الناس، ويلعبوا بعقول العقلاء. والكهانُ كانوا في الجاهلية محكمين في أمور الناس وحياتهم.

وكيفما كان الأمر فهما في مقام بيان المراد بالخشية من أبطل الباطل، وأمحل المحال منفردين أو مجتمعين.

ثانيها - الهاجس، ومعنى ذلك أن الخشية التي اعترت النبي ﷺ كانت من قبيل ما يهجس في النفس، أي يعرض لها بما يخيفها، عرضًا خاطرًا، دون تحقق شيء مخيف، قال ابن حجر: وهذا باطل أيضًا ؛ لأن الهاجس لا يستقر، والذي وقع للنبي ﷺ كان أمرًا مستقرًا ثابتًا، بدليل حصول المراجعة بينه وبين جبريل، والمراد مراجعته في طلب القراءة بقوله ثلاث مرات: «ما أنا بقارئ».

ثالثها - الموت من شدة الرعب، ومعنى هذا أن النبي ﷺ حصل له من المفاجأة وما حف بها رعب شديد، بلغ به أن خاف على نفسه الموت من شدة ما كابد وعانى في الغط، وقد يؤيد هذا القول ما ورد في مرسل عبيد بن عمير من قوله

(١٠) الشعبذة والشعوذة بمعنى واحد. (المجلة)

ﷺ : فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ، قلت «ما أقرأ» «فغتني به حتى ظننت أنه الموت» فظن الموت من شدة الغت توجب شدة الرعب، فتكون خشية الموت من شدة الرعب الذي ترتب على شدة الغت جائزة الوقوع سائغة القبول.

ويكون إخباره ﷺ خديجة أنه خشي على نفسه معناه أنه خاف على نفسه الموت من شدة ما وقع له من تكرار الغط وشدته التي بلغت منه أقصى جهده واحتماله، نظير ما وقع له في رؤيا النوم.

رابعها - المرض، وقد جزم بهذا القول ابن أبي جمرة، ولعل معنى هذا القول أن النبي ﷺ خشي من شدة ما لقي من أثر المفاجأة وتكرار الغط البالغ نهاية الشدة - على نفسه المرض، وأن يقعده ذلك عن القيام بما كُلفه من تبليغ رسالة ربه، فيرجع هذا القول إلى معنى العجز عن حمل أعباء الرسالة، وهو بهذا التوجيه سائغ مقبول.

خامسها - دوام المرض، ويشبه أن يكون هذا القول هو القول السابق بتوجيهه الذي ذكرناه، ولم يعرف عن النبي ﷺ أنه كان يشكو مرضًا في أيام جواره في الغار حتى يخشى على نفسه دوام المرض، وإنما معنى هذا القول أن ما وقع له ﷺ من شدة الغط وروعة المفاجأة نال من بشريته بما أتعبه وأمرضه، وخشي على نفسه أن يدوم هذا المرض،

فيعجز عن حمل أعباء الرسالة.

سادسها - العجز عن حمل أعباء الرسالة، وهذا هو القول السديد الذي ينبغي أن تُئَوَّلَ به الخشية، والروايات بمنطوقها ومفهومها وجو الأحداث تؤيده، كما بيناه فيما سبق.

سابعها - العجز عن النظر إلى الملك من الرعب، وهذا القول يفيد أن الملك فاجأه بصورة غير بشرية فرعب منه، وخشي على نفسه أن يعجز عن النظر إليه لتلقي الوحي منه، وقد يتأيد هذا بما وقع للنبي ﷺ من الغشي حينما رأى جبريل عليه السلام على صورته التي خلق عليها، وحينما رآه سادًا الأفق وهو جالس على كرسي بين السماء والأرض.

ثامنها - عدم الصبر على أذى قومه، وهذا القول يدخل في حيز القول بخشية العجز عن حمل أعباء الرسالة، فهو بسبب من أسبابه فهما كالقول الواحد.

تاسعها - أن يقتله قومه إذا بلّغهم رسالة ربه، قال القسطلاني في المواهب وشارحه الزرقاني: ولا غرو في خشيته ذلك وإن كان سيد أهل اليقين؛ لأن ذلك مما يرجع إلى الطبع، فإنه بشر يخشى من القتل والأذية، كما يخشى البشر، ثم يهوِّن عليه الصبر في ذات الله كل خشية، ويجلب إلى قلبه كل شجاعة وقوة.

وهذا القول - في رأينا - يرجع أيضًا إلى خشية العجز عن حمل أعباء الرسالة وعدم الصبر على أذى قومه.

عاشـرها – مفارقة الوطن، وهـذا مما يمكن أن يكون قد دار في خلد رسـول الله ﷺ، وألم بخاطـره، فإن مجيئه لقومه بمـا يخالف ما هم عاكفون عليه، منغمسـون فـي حمأته من وثنية وعوائد فاسـدة وأخلاق مرذولـة ونظم ظالمة، يجعلهم يضيقون بـه وبوجوده بينهم ليغير حياتهم وينقلهم إلى حياة تباعد بينهم وبين هذا الفسـاد الـذي ألفوه وارتضوه لحياتهم وعاشـوا به، فلا أقل من محاولة التخلص منـه بإبعاده عنهم، وإخراجـه مـن بلـده وديـاره، وذلك من أشـق ما يكـون على النفـس، بدليـل ما جاء فـي حديث ورقة بن نوفـل حينما قال للنبـي ﷺ: ليتني أكـون حيًا إذ يخرجك قومك، فاسـتعظم النبـي ﷺ ذلك اسـتعظاماً كبيرًا، فقال منكـرًا متعجبًا: (أو مخرجيّ هم؟) وهذا القول في بيان المراد من الخشية مما لا يمتنع قبوله.

حـادي عشـرها – تكذيبهـم إيـاه، وهـذا أمـر طبيعي الوقوع، فخشـيته ﷺ أن يكذبوه في دعوته وسـيلة إلى توقع الأذى منهـم، وحينئذ يـدور في خواطره تسـاؤل: هل يصبر على أذاهم، ويقوى على الدأب في تبليغ رسالة ربه، غير مبال بمـا يكون منهـم؟ أو لا يصبر علـى الأذى؛ فيعجز عن حمل أعباء رسالته؟.

ثاني عشرها – تعييرهم إياه، وهذا قول لا محصل له؛

لأن خشية التعيير لا تكون إلا إذا كان التعيير بأمر معيب، يسوء الإنسان في أخلاقه وسلوكه، والنبي ﷺ قد أتى قومه، وأتى العالمين بما لم يأت أحد من الأنبياء والمرسلين بمثله خيرًا وبرًا وهُدى وعدلًا ورحمة وطهارة عقيدة وسمو أدب، فبم يعيرونه؟ حتى يخشى هذا التعيير، ولا يمكن أن يقع ذلك منه ﷺ إلا إذا كان على معنى مجردِ مخالفتهم لما كانوا عليه من سوء العقيدة ورذائل العادات التي ألفوها، وأصبح من العسير عليهم خروجهم منها، وقد يتأنس لذلك بخشيته ﷺ من تعييرهم إياه بمخالفتهم في كثير من أعرافهم وعاداتهم الباطلة كما وقع ذلك في خشيته ﷺ تعييرهم له بزواجه امرأة مولاه زيد بن حارثة الذي كان يُدْعَى فيهم زيد بن محمد، فأخفى في نفسه ما أظهره الله، زواجه بها قطعًا لدابر عادة فاسدة، وعرفه أنه سبحانه أحق بالخشية من الناس لأن الله يقول الحق، ويشرع لعباده الحق والعدل، وأولئك القوم الذين تخشاهم كانوا أولياء الشيطان شرع لهم الأباطيل والأضاليل، فتمسكوا بها وتأصلت في نفوسهم.

ولكن رسول الله ﷺ هو القدوة للمؤمنين في هدم أباطيل الشرك وأضاليل الوثنية ورذائل الجاهلية ومفاسدها، ولهذا جعله الله المثل المشهود في هدم هذه العادة الظالمة من عاداتهم المتأصلة في أخلاقهم، فزوّجه السيدة زينب بنت

جحش التي كانت زوجة لمولاه زيد الذي كان يدعى زيد بن محمد بالتبني بعد أن طلقها زيد، فكانت بهذا التشريع الحكيم إحدى أمهات المؤمنين.

قال ابن حجر بعد سوقه لهذه الأقوال بهذا الترتيب الذي أوردناها على نهجه: وأَولى هذه الأقوال بالصواب، وأسلمها من الارتياب، القول الثالث واللذان بعده، وما عداها فهو معترض.

وبالتأمل في توجيهنا لهذه الأقوال يعرف القارئ ما في كلام الحافظ ابن حجر من ترجيحه القول الثالث، وهو كما في ترتيبه القول بأن المراد بالخشية الموت من شدة الرعب والقولين بعده في الترتيب، أي القول الرابع، بأن المراد بالخشية المرض، والقول الخامس في الترتيب بأن المراد بالخشية دوام المرض.

وهذه الأقوال التي رجحها الحافظ ابن حجر من أضعف الأقوال الاثني عشر التي ذكرها، وقد يلمح الباحث أننا في توجيهنا سابقًا ولاحقًا نرجح القول السادس في ترتيب الحافظ، وهو أن المراد بالخشية العجز عن تحمل أعباء الرسالة، والقيام بتبليغها إلى الأمة، ويليه في ترجيحنا القول الثامن، وهو أن المراد بالخشية عدم الصبر على أذى قومه، وهذا القول متصل بمضمونه بخشية العجز عن تحمل أعباء الرسالة.

ولا ضير مطلقًا أن يخشى رسول الله ﷺ بعد يقينه في لقاء الغار أنه كُلِّف ما لم يكلفه أحد قبله - وقد بسطنا القول في ذلك - أن تقوم في سبيله بعض العوائق والعقبات التي قد تعجزه عن القيام بموجبات تبليغ رسالته وحماية دعوته، فأبدى ذلك لزوجه وسَكَنِ نفسه، الوفية الأمينة، فأخبرته بما ترى بفراستها وتوسمها في حياته وجبلته التي فطره الله عليها من المكارم الخلقية التي لا يخزي الله من حلاه بها طبعًا وفطرة، فزادته تثبيتًا على ثباته، ويقينًا على يقينه، فكأنها رضي الله عنها قد كشفت له عن أصالة فطرته في المكارم التي كان على أكمل يقين منها، وأتم معرفة بها، ظنًا منها رضي الله عنها أن ما نال بشريته من روع المفاجأة وشعوره ببهظ ما كُلفه قد ضخَّم في خواطره الأعباء التي تنتظره في مستقبل دعوته، بصورة جعلته ﷺ يخشى العوائق والعقبات، وهذا أمر طبيعي في البشرية فيما هو دون ذلك بمراحل ومراحل، وأحق من يزن الأحداث بميزان تقديرها حق قدرها رسل الله وأنبياؤه، وأحقهم بذلك أعمهم رسالة وأعظمهم دعوة خاتم النبيين محمد ﷺ .

ومن غريب ما وقع في هذا الموضع أن العلامة الزرقاني شارح مواهب القسطلاني ذكر القول في بيان المراد بالخشية تعييرهم إياه قولًا رابعًا في الترتيب، ثم قال: قال الحافظ - أي ابن حجر - : وهذان القولان - أي القول بالموت من شدة

الرعب، والقـول بتعييرهم إياه - أولى بالصواب، وأسـلمها مـن الارتياب، وهذا خلاف ما صرح بـه الحافظ ابن حجر في الفتح، وقد نقلنـا عبارته قبل هذا التنقيح للأقوال، وقد رجح فيهـا القول الثالث والرابع والخامس في ترتيب سـياقه، وقد أوضحنا ما يقتضيه البحث العلمي في هذه الأقوال.

وحسـب القلم من حديثٍ عن هذه الأقـوال التي قيلت في بيـان المراد من قوله ﷺ: (قد خشـيت على نفسـي) ما نثر من رشح مداده، فإن فيه رِيَّ الظمأ، وثلج البيان.

بيـد أن أول هـذه الأقـوال - في ترتيب الحافـظ ابن حجر كمـا نقلناه عـن الفتح، وهو القول الأحمـق الذي زعم زاعمه أن المـراد بالخشـية الجنون، وأن يكون مـا رآه ﷺ من جنس الكهانة - يشد القلم إليه لبيان زيفه وبطلانه، وحماقة قائله، وبله من يقبله ويرتضيه قولًا، ويحكي في أعطر سيرة لأفضل الأنبياء وأشرف المرسلين مهما كانت شهرة قائله.

وقد كان في نقد الحذَّاق من أئمة العلم لهذا القول الأحمق، وإبطالـه وتزييفه ما يكفي لراحة القلـب من همه وغمه، فقد أبطلـه الإمـام الحـاذق الفقيه المفسـر أبو بكر بـن العربي، ولـم يقم وزنًا في موازين العلم لقائلـه، ولم يعبأ به باحثٌ من الباحثين المفكرين، وقد شـد أزر ابن العربي وأيده في قطعية الحكـم ببطلانه الإمام الحافظ العلامة ابن حجر، فقال بعد أن ذكر إبطال ابن العربي له: وحق له أن يُبطل.

غير أن ابن حجر لم يشأ أن يترك هذا القول الأحمق تهوي به عواصف الإهمال إلى أودية الفناء، ولكنه أداء لحق استيفاء البحث ذكر أن هذا القول جاء مصرحًا به في عدة طرق، ولم يبين ما هو وزن هذه الطرق التي جاءت مصرحة بهذا القول الأحمق، ومن هو الذي أُسند إليه التصريح به؟

وسيرى القارئ أن من هذه الروايات والطرق المتهافتة المتهاوية التي صرحت بهذا القول ما رواه ابن سعد عن شيخه الواقدي، وسنبين وزنها في نظر جهابذة المحدثين.

وإلى هنا ليس في أمر هذه الأقوال ما يحمل القلم إلى إطالة الوقوف معها، فقد بان أمرها، وانكشف سرها، وهان خطرها، ولكن الحافظ ابن حجر مع تأييده لبطلان هذا القول الأحمق - على رغم قوله: جاء مصرحًا به في عدة طرق، فلم يرفع لهذه الطرق رأسًا، ولم يعبأ بها بحثًا، وابن حجر في عدم عبئه بهذه الروايات والطرق التي صرحت بهذا القول هو من هو في وزن البحث الحديثي، فموقفه هذا يكشف عن زيف هذه الطرق ويكشف عن زيغها؛ لأنه ليس من المعقول، ولا من المقبول في شرعة البحث العلمي أن تكون هذه الطرق أو بعضها يستند إلى شبه دليل يقيها التهاتف والضعف، بل الزيف والبطلان، ثم يقف منها الحافظ ابن حجر موقف عدم الاعتداد بها وإهمالها، والجزُم ببطلان القول الذي جاءت مصرحة به - أعطى لهذا القول وزناً يخدع الأغرار الذين

يقبلـون أقوال الرجـال بوزن أسـمائهم في طبقـات العلماء، لا بـوزن آرائهـم وأفكارهـم في سـجل البحث العلمـي الذي يسـتهدف الحق، فنقل عن أبي بكر الإسماعيلي شيخ عصره في الحديـث والفقه - كما يقول عنه الحاكم - أنه حمل هذا القول على أنه - أي خشية الجنون - وأن ما رآه ﷺ من جنس الكهانة - حصل للنبي ﷺ قبل أن يحصل له العلم الضروري أن الذي جاءه - أي في الغار - ملك من عند الله.

ونحن عبـر القرون نتخطى درجات الزمن، ونسـأل الإمام أبا بكر الإسـماعيلي، ومن يعتد بدعمـه لهذا القول بعده من المفكريـن والباحثيـن إلـي يومنا هـذا، وإلى يـوم تتهدد فيه مكانـة العقل الإنسـاني فـي جدية البحث العلمي، ولاسـيما فيما يختص بأخطر أمور الدين والنبوة والرسـالة عامة، ونبوة ورسالة الإسلام خاصة، ليكشف لعقلاء المفكرين عن حقيقة قوله: إن ذلك - أي خشـية الجنـون والكهانة - حصل للنبي ﷺ قبـل أن يحصـل العلم الضروري له أن الـذي جاءه ملك، وأنه من عند الله تعالى، فنقول: في كم شهر، أو في كم سنة، يحصـل العلم الضروري - أي الملجـئ - للنبي ﷺ أن الذي جـاءه في الغار ملك، وأنه من عنـد الله تعالى؟، وأن ما رآه في الغار وسمعه، وكابده من روعة المفاجأة، وطلب القراءة منه، وهـو الأمي الذي لم يقرأ قط، وما تبع ذلك من الغط الشـديد الـذي بلغ منه الجهد حتى ظن أنه الموت، وتكرار ذلك ثلاث

مـرات، وإقرائـه فـي المرة الرابعـة خمس آيات مـن الكتاب الكريم، هي أوائل سـورة (اقرأ) وهـي أول ما نزل من القرآن العظيم ورجعه بها إلي أهله محفوظة مذكورة - ليس من جنس الكهانة والجنون - وتلبيس الشياطين؟

وقد كانت نبوة نبينا محمد ﷺ ثابتة قطعًا بأكثر من مرتبة مـن مراتب وحي النبـوة، وأثبت هذه المراتـب وأقواها وحي الرؤيـا المناميـة التي اتفقت عليها جميـع الطرق والروايات وأجمعـت عليها الأمة إجماعًا لم يعـرف له مخالف، وكانت هـذه المرتبـة مـن وحـي النبـوة مـع غيرهـا من المبشـرات والإرهاصات أسـبق زمنًا - بمدة أقلها سـتة أشهر كما خرجه البيهقي، وأكثرها ثلاث سنوات كما في حديث إسرافيل عند الشعبي - من حادث الغار الذي تلقى فيه رسول الله ﷺ وحي المواجهة واليقظـة بمفاجأة الملك، وطلـب القراءة، والغط والمراجعـة وبـدء نـزول القرآن العظيـم بنزول أوائل سـورة (اقرأ) مما بدأت به رسالة النبي ﷺ.

وأشـهر روايات وحـي النبوة بالرؤيـا المنامية وأصحها ما جاء في حديث عائشـة رضي الله عنهـا عند البخاري وغيره إذ تقـول فيه: أول ما بديء به رسـول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقـة ـ وفي روايـة: الصالحة ـ في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

وهذا التعبير في أسـلوب السـيدة عائشة رضي الله عنها لا

يقال في بيان الفصحى فيما وقع مرة أو مرتين وإنما يقال فيما يفيد الكثرة والتكرار.

الرؤيا الصادقة أول مراتب وحي النبوة:

ومعنى هذا أن الرؤيا الصادقة كانت أول مرتبة في مراتب وحي نبوة محمد ﷺ، فكان ﷺ نبيًا منذ بدأه الوحي بالرؤيا الصادقة، وقد ذكر البيهقي تحديدًا لمدة وحي الرؤيا المنامية بستة أشهر، وهذا التحديد مما لا سبيل فيه للرأي والاجتهاد، ولا يمكن أن يقال بالظن والاستنباط، ولا بد في إثباته من النقل الصحيح عن رسول الله ﷺ، فهو وحده الذي يعلمه ويخبر به. ومنزلة البيهقي في السنة وعلوم الحديث وفنون الرواية أرفع قدرًا من أن يقول ذلك تقحمًا وتخرصًا دون أن يكون قد ثبت عنده رفعه إلى رسول الله ﷺ .

وقد روى ابن سعد في الطبقات، وابن سيد الناس في (عيون الأثر) وغيرهما من أئمة الحديث عن الشعبي بأسانيد متعددة، وطرق مختلفة قال عنها القسطلاني في المواهب نقلاً عن روض السهيلي: فقد ثبت في الطرق (الصحاح) أن رسول الله ﷺ وكِّل به إسرافيل، فكان يتراءى له ثلاث سنين ويأتيه بالكلمة من الوحي، ثم وكِّل به جبريل فجاءه بالقرآن والوحي.

قال ابن سعد: فذكرت هذا الحديث لمحمد بن عمر -

الواقدي ـ فقال : ليس يعرف أهل العلم ببلدنا أن إسرافيل قرن بالنبي ﷺ ، وأن علماءهم وأهل السيرة منهم يقولون : لم يقرن به غير جبريل من حين نزل عليه الوحي إلى أن قبض ﷺ .

وقد اعتمد السهيلي حديث الشعبي – الذي فيه إسرافيل – ، ورجحه ابن حجر على كلام الواقدي ، فقال : إن الشعبي مُثبِت والمثبت مقدَّم على النافي .

وأنى للواقدي أن يُقْرَن بالشعبي أو يكون معه في ميزان ؟ وكلام النقدة وأهل الجرح والتعديل في الواقدي وضعفه معروف مشهور ، وعدم معرفة أهل العلم ببلده أن إسرافيل قُرِن بالنبي ﷺ لا يصلح دليلًا على عدم صحة حديث الشعبي ، فقد يكون هذا من العلم الذي لم يصل إلى أهل العلم في بلد أو وصلهم ولم يصل إليه منهم ، وكم من العلم كان في بلد من بلاد الإسلام لم يصل إلى بلد آخر ، وهذا النحو كان من مصادر اختلاف العلماء في الاجتهاد .

وترائي إسرافيل عليه السلام للنبي ﷺ وإتيانه إياه بالكلمة من الوحي ـ كما في حديث الشعبي ـ نبوة لا شك فيها ، وإلا فكيف تُلقى الكلمة من الوحي لغير نبي ؟

وإذا تجاوزنا عن التمسك بحديث الشعبي ـ وقد بينا اعتماد السهيلي وتصحيحه وترجيح ابن حجر له ـ وهو صريح في أن مدة قرن إسرافيل به ﷺ ، يظهر له ، ويأتيه بالكلمة من الوحي

ـ ثلاث سنوات كان فيها محمد ﷺ بيقين نبيًا معصومًا، يوحى إليه، ولا سبيل للشك إلى قلبه، ولا سبيل للشيطان عليه، إذا تجاوزنا عن ذلك كان أثر البيهقي في تحديد مدة وحي الرؤيا المنامية بستة أشهر قائمًا مستمسكا يثبت نبوة محمد ﷺ، وعصمته بما لا يدع مجالاً للشك، قبل وقوع المفاجأة في الغار ـ ووحيها اليقظي الذي جاءت في روايته (الخشية)، وتقحُّم المتخرصين في تفسير المراد منها ما تقحموا ـ بزمن طويل يكفي لأن يحصل فيه العلم الضروري وأكثر منه بأن ما رآه وسمعه وكابده في الغار أمر من عند الله ووحيه، لا يخشى منه على نفسه جنونًا ولا كهانة.

وقد بيَّن حديث عبيد بن عمير، وحديث عبد الله بن أبي بكر بن حزم بصورة واضحة أسبقية وحي الرؤيا الصادقة، بما يشعر بطول مدتها قبل نزول وحي اليقظة في غار حراء الذي جاءت في قصته (الخشية) فيكون فيهما تأييد لأثر البيهقي.

أفلا تكفي ستة أشهر ـ بله ثلاث سنوات التي في حديث الشعبي ـ في أنوار النبوة ووحيها وإرهاصاتها وآياتها لحصول العلم الضروري للنبي ﷺ أن الذي جاءه في الغار مفاجئًا، وغطه وأقرأه خمس آيات من القرآن العظيم هي أول ما نزل منه في أول سورة (اقرأ) ملك، وأنه رسول من عند الله إليه، وأن هذا الرسول هو أمين الوحي جبريل عليه السلام، كيف وقد قال النبي ﷺ لخديجة رضي الله عنها كما ثبت في

حديث ابن حزم: «أرأيتك الذي كنت أحدثك أنني رأيته في المنام فإنه جبريل استعلن».

وفي دلائل البيهقي من طريق أبي ميسرة مرسلًا أن النبي ﷺ قص على خديجة ما رأى في المنام، فقالت له: أبشر، فإن الله لن يصنع بك إلا خيرًا، ثم أخبرها بما وقع له في النوم من شق البطن، فقالت له: أبشر إن هذا والله خير، ثم استعلن له جبريل، فقال لها: (أرأيتك الذي كنت رأيت في المنام فإنه جبريل استعلن لي بأن ربي أرسله إليّ) وأخبرها بما جاءه به، فقالت: أبشر، فوالله لا يفعل الله بك إلا خيرًا، فاقبل الذي جاء من الله، فإنه حق، وأبشر فإنك رسول الله حقًا.

وقد فرَّع الحافظ ابن حجر من هذا الحديث مسألة في أسبقية خديجة رضي الله عنها على جميع الناس إيمانًا برسول الله ﷺ، مما يدل على قبوله عنده - وحسبك به في هذا المجال - فقال: هذا أصرح ما ورد في أنها أول الآدميين آمن برسول الله ﷺ.

فحديث أبي ميسرة عند البيهقي صريح في أن النبي ﷺ كان على أكمل اليقين بأن الذي جاءه في المنام وشق بطنه وأعاده، ثم استعلن له في مفاجأة الغار هو ملك، وأنه رسول إليه من عند الله، بل كان على أكمل اليقين أنه هو أمين الوحي جبريل عليه السلام، وهذا موافق تمام الموافقة لحديث ابن أبي بكر بن حزم، وهذه الموافقة تؤكد أن النبي ﷺ كان

على أكمل العلم الضروري بأن الذي جاءه في الغار ملك، وأنه من عند الله، بل إنه هو جبريل أمين الوحي عليه السلام.

كيف وقد رآه معاينة، وشاهده جهرة عقب رؤياه منامًا في رؤيا نمط الديباج، وأقرأه الآيات الخمس التي أقرأه إياها في مفاجأة الغار كما ورد في حديث عبيد بن عمير من قوله ﷺ : «فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتًا من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، فرفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل».

أفلا يكفي ذلك كله لحصول العلم الضروري عند محمد ﷺ أنه نبي يوحى إليه، وأن الله تعالى أرسل إليه الروح الأمين في صور من مراتب الوحي المنامي واليقظي ليخبره أنه رسول الله، وأن الذي يراه ويحدثه هو حامل كلمة الله إليه جبريل عليه السلام؟

أوَلا يكفي ذلك كله لتحقيق العصمة العامة التي يجب أن يتصف بها كل نبي لله تعالى، فلا يعتريه مسٌّ من الشك في نبوته ووحي الله إليه، ولا يكون للشيطان عليه سبيل، يلبس عليه أمر ربه في وحيه ونبوته؟

أوَلا يكفي ذلك كله ليملأ قلب محمد ﷺ يقينًا فوق مستوى العلم الضروري، فلا يختلج في نفسه أن رؤيته لملك

الوحي معاينة مواجهة ـ يحاوره ويراجعه، ويضمه إليه استفراغًا لبشريته مرات ويشافهه بما أنزل عليه، فيقرئه خمس آيات بينات من القرآن المبين، هي في موضعهن معجزة المعجزات ـ جنون أو من جنس الكهانة وعبث الشياطين.

صرخة في أذن التاريخ لتصحيح الأغاليط:

يا أئمة العلم، يا سدنة الإيمان: ألا سمعتم إلى صوت العقل العليم، والإيمان الكريم، وهما يقولان لكم: انظروا عمن تتحدثون؟ وفيم تتحدثون؟ وإلى من تتحدثون؟ إنكم تتحدثون عن محمد رسول الله ﷺ، خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وهو الذي صنع منكم سدنة لكعبة الإيمان في أمته، وهو الذي أطلعكم شموسًا من آفاق دعوته وبه كنتم هداة بهداية رسالته، وأورثكم بعده نور شريعته، لتنيروا الطريق أمام الحياة، وتدرءوا عن العقول الشبهات والشكوك، وهو الذي قعدتم باسمه وهدي نبوته مقاعدكم على ذرى التبجيل والإعزاز.

أفليس من بدائه حقه ﷺ في أعناقكم خاصة أن تقدروه حق قدره؟ وأن تعرفوا له مكانه من العصمة في وحي الله إليه منذ أول لحظة اصطفاه الله فيها لنبوته؟ واستنبأه فيها بوحيه، وأن تعرفوا له منزلته من عين اليقين في كل ما رأى وسمع وكابد في أول مفاجأة بوحي اليقظة الذي بدأت به رسالته، ونزلت

عليـه في هذا الوحـي اليقظي آيـات من القـرآن الحكيم بعد نبوته التي ظل مغمورًا بأنوارها ثلاث سنوات، كما في حديث إسرافيل عند الشعبي، أو ستة أشهر، كما رواه البيهقي؟

يا أئمة الهدى، وسدنة الإيمان، ألا قدّرتم حين تحدثتم عن رسالة محمد ﷺ في أول مراتب وحيها أنكم لا تتحدثون عن مسـألة فقهية يسـوغ فيها اختلاف الاجتهاد، وقد يخف فيها الخطأ، ولكنكم تتحدثون في الوحي الذي تثبت به رسـالات الله تعالى إلى المصطفين من أنبيائه ورسـله ليكونوا سـفراءه إلى خلقه، يبلغونهم عنه شـرائعه وهداياتـه، وهذا الوحي لو دخله شـيء - أدنى شـيء - من الشـك واحتمال التلبيس، لما أمكـن لأكثر العقـول أن تطمئن إلى حصـول يقين يزيح هذه الشكوك.

وقد انتهى الوحي لسـائر الأنبياء والمرسـلين إلى الوحي لخاتمهـم محمـد ﷺ، فإذا تعـرض هذا الوحـي المحمدي لأدنى شـبهة لم يكن من الممكن اسـتفتاح القلوب والعقول لهداية الرسالة الخاتمة لرسالات جميع المرسلين.

وإذا تعرض صاحب هذه الرسـالة لشـبهةِ شكٍ في تلقيها - بلـه الكهانـة والجنون - لم يكن هناك سـبيلٌ للإيمان بدعوته وتقبل هدي رسـالته؛ لأن ضباب الشـك يحجب أشـعة العلم بالحق، ومع وجود هـذا الضباب كيف يمكن إقناع الناظرين بوجود أشعة الحق من وراء هذا الضباب؟

يا أعلام الهدى؟ هل فكرتم حين تحدثتم عن الوحي في مطلع رسالة محمد ﷺ وهو ينزل عليه بآيات بينات افتتح بها نزول القرآن الكريم أنكم تتحدثون إلى المسلمين أمة محمد ﷺ في مشارق الأرض ومغاربها، وإلى خاصتهم وعامتهم، علمائهم ومتعلميهم، وأغمارهم، وكل هؤلاء وضعوا في أذهانهم صورًا لكم من الإعجاب، وأحاطوها بالقداسة والإجلال، فكيف بهم وبكم وهم يرون بعضًا ممن ينتسب إلى الذروة في أمة محمد ﷺ رضي لدينه وعلمه وعقله أن ينسب إلى محمد ﷺ أنه شك في وحي ربه إليه -ولو لحظة- وأنه خشي أن يكون هذا الوحي إليه جنونًا أو كهانة؟

إن هذا التقحم المتخرص في تفسير بعض الألفاظ يفتح الأبواب لمن ولجوا إلى ساحة الإيمان ليخرجوا منها حتى يجدوا اليقين فيعودوا إليها معه، وأنَّى لهم باليقين مع احتمال الشك والتلبيس؟

يا قادة الفكر في الإسلام، هلا مددتم أنظاركم إلى آفاق الدعوة الإسلامية الشاملة أقطار الأرض وأجيال الإنسانية أينما حلوا وحيثما وجدوا، وعلمتم أن أحاديثكم التي تتحدثون بها بألسنتكم وأقلامكم عن رسالة الإسلام وحياة رسوله محمد ﷺ لا تقف عند مسامع المجتمع المسلم الذي قد يكون له من إيمانه بقداسة الرسالات الإلهية ما يحميهم

مـن الريب والاضطراب فـي عقيدته، ولكنه ينتشـر في آفاق الحياة، فتسـمعه آذان غير مسـلمة، ويدخل عن طريقها إلى قلوب قد تحمل البغض والعداوة للإسـلام، ورسول الإسلام، وأصحـاب هذه القلوب الحاقدة يقفـون متربصين بهذا الدين ورسـالته دوائر الفلتات الخاطئة التي تنزُّ بها أقلام وألسنة من وُضعوا من الإسـلام موضع القيادة الفكريـة، فإذا عثروا على فلتـة خاطئة تنادَوا إليها، وطاروا بها فرحًا، وتجمعوا حولها، وجعلوا منها قضية فكرية يهاجمون بها الإسلام في رسالته وفي حياة رسوله، لا سيما إذا كانت تلك الفلتة الخاطئة مما يتعلق بأصل أصول الإسـلام، بالوحي الذي بدأت به رسالة الإسلام، ويتخـذون منها موردًا للمطاعن التي تقوض دعائم الإيمان في نفوس الذين لم يرسـخ إيمانهم، بلـه الذين في قلوبهم مرض من الذين يكثر بهم سواد المسلمين (الجغرافيين) وهم غثاء كغثاء السيل، لا يستطيعون رد شبهة ولا إقامة حجة.

وإذا كان هـذا موقـف الحاقدين على الإسـلام، الشـانئين لرسـوله ﷺ كفـرًا وحسـدًا مـن عنـد أنفسـهم مـن فلتات أقلامكم وألسنتكم فهناك موقف من لم تبلغهم دعوة الإسلام أصـلًا، أو بلغتهم بلاغًا مشـوهًا محرفًا عـن حقيقتها تحريفًا وشوهًا يصدان عن سبيلها والنظر في حقائقها - وما جاءت به من عقيدة نظرية وعبادات عملية، وآداب خلقية وتشـريعات نظاميـة - تبغيضًـا فيه، وطعنًا في رسـالته التي جاء بها محمد

خاتم النبيين صلوات الله عليه.

وهؤلاء الذين لم تبلغهم دعوة الإسلام، أو بلغتهم في شَوْهٍ وتحريف أسمع إلى صناديدهم، ومنْ وُسِمُوا بالعلم والمعرفة من أحبارهم ورهبانهم وكهنتهم، ممن يتزيا بزي أهل المعرفة، ويتسربل بسربالهم من مرتزقة الاستشراق والتبشير -بالأضاليل التي يتسقطون الفلتات الخاطئة بها، من أقلام وأفواه الغافلين ممن اتسموا بسمات العلم في الإسلام، ويتلقفون الأخطاء يرجفون بها إرجاف الحقد الظلوم، يتزيدون فيها، وينشرونها هنا وهناك منسوبة إلى قائلها في جو من التهويل والطنطنة بأسماء من زعموا أنهم يمثلون الفكر المسلم.

هذه الفلتات الخاطئة تعصف بالعقول وتحرق القلوب:

وتنزل آثار هذه الفلتات الخاطئة على قلوب المؤمنين برسالة الإسلام صواعق تحرقها، وعلى عقولهم عواصف تهزها بالشك المدمر، فتذيب عقائدهم، وتشرد من طريقِ الإيمان برسالة الإسلام من لم تبلغه دعوته، وتتوتد عقبةً كَئُودًا في سبيل الداعين إلى هدايتها، يعسر عليهم زحزحتها ما دامت تلك الفلتات الخاطئة تحف بها.

يا سدنة الإيمان، ما كان يضركم في دينكم وعلمكم لو

أنكم حبستم هذه الفلتات الخاطئة في داخل هواجسكم ولم تسمحوا لها أن تطل برأسها على الحياة الفكرية في معارف الإسلام، حتى لا يفتتن بها ضعاف العقول من الذين يخلعون عليكم جلابيب القداسة في عالم الإسلام، وحتى لا تكون فتنة تشعل نيران الحقد في مرضى القلوب الذين يتربصون بالإسلام الدوائر من أعدائه المتعصبين عليه وعلى أمته وأوطانه؟

ومرة أخرى ما كان يضركم لو رددتم هذه الفلتات الخاطئة على من تولى كبرها، وتقحّم تخرصها مهما كان شأنه؟ أكان ينقص رسالة الإسلام شيء تخافونه عليها لو لم تثبت هذه الفلتات الخاطئة في تفسير بعض كلمات قد تكون مروية في بعض روايات الحديث، ولها مخارج من التفسير يبعدها عن نهج العصمة الواجبة للأنبياء، وتنأى بها عن مواقع الريب والشكوك في وحي الرسالة الخاتمة لرسالات السماء؟!

وكم من أحاديث وروايات سُمعت ورويت ثم أهملت ولم يقدّر لها أن تثبت في سجل المعارف الإسلامية؟ وكم كان يحفظ شيخ الدنيا في الحديث الإمام البخاري من الروايات والأحاديث؟ وكم كان يحفظ غيره من شيوخه وتلاميذه، ومن سبقهم، ومن جاء بعدهم؟ إنهم وإنه كانوا يحفظون مئات الألوف مما يجل عن الحصر، وما الذي سجلوه في جوامعهم ودواوينهم مما حفظوا، إنه أقل من القليل وليس

كل ما لم يثبتوه كان موضوعًا مكذوباً.

أفلو كانت هذه الفلتات التفسيرية أهملت عن قصد أو عن غير قصد أكان إهمالها وتركها يضر بالدين والعلم؟

يا هادي الطريق جُرْتَ، إنما هو والله الفجر أو البَجر!!

يا سدنة الإيمان، لو كنتم تعرفون ما تقاسي أمة الإسلام اليوم، وما يعانيه الإسلام من هجوم الإلحاد وطغيان الكفر (الجديد) ما رضيتم أن تثبتوا هذه الفلتات الخاطئة ولأرحتم أمتكم من آثارها القاسية.

إننا اليوم - حيث لا أنتم - نعاني من شدائد الإلحاد الحقود، والعداوة الكفور لإسلامنا ما لم يعرف مثله في تاريخ الإسلام، إننا اليوم حيث لا تستطيعون - وقد فارقتم الدنيا - تبيينَ ما نزّت به ألسنة وأقلام، شحنت بها كتب التراث الإسلامي، تبيينًا يرفع عنها الاحتمالات الضارة بالدين والدنيا، ويسد منافذ الشكوك في قداسة النبوة وجلال الرسالة الإلهية، ويذود عن حمى عصمة الأنبياء والرسل، ويطهر ساحة الرسالة المحمدية الخاتمة عن دنس الأباطيل ورجس التلبيس والشك مما قد يتعلق به أعداؤها - وما كان أكثرهم - من شبهات وأضاليل تنز بها تخرصات متقحمة - نقول جهرة بصورة عامة: إن من أوجب واجبات علماء الإسلام في يومنا هذا أن يعملوا جادين مسرعين على تنقية التراث الإسلامي ومؤلفاته في سائر فنونه، ولا سيما فن الحديث

والسنة النبوية، وفن تفسير القرآن من الفلتات الخاطئة والأكاذيب الضالة المضلة، التي دُست على الإسلام، أو قبلت رواياتها عقول بالغت في حسن الظن بالرواة والناقلين.

ولأن نخطئ في حذف ما عسى أن يكون صحيحًا ولكنه عسر الفهم، صعب التأويل، خير من أن نبقي على فلتة خاطئة واحدة، أو دسيسة دخيلة واحدة، يتخذها أعداء الإسلام من ملاحدة العصر الكفور ذريعة للهجوم على حقائق الإسلام العقائدية أو التعبدية أو النظم الاجتماعية.

وبصورة خاصة فإن كل ما قيل حول ما جاء في روايات بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ من كلام يشعر بأدنى شك في يقين رسول الله ﷺ بأن من جاءه في غار حراء يقظة، وأقرأه من القرآن أول ما أنزله الله تعالى عليه من أوائل سورة:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾

هو جبريل أمين الله على وحيه إلى الأنبياء والمرسلين هو كلام باطل لا تقبله عقول المؤمنين، وتَقَحُّمٌ في التأويل، وتخرص في الاستنباط يجب طرحه وإهماله، وتخليص دواوين السنة النبوية منه، تنزيها للرسالة المحمدية مما يخدش سموها وقداستها.

والكلمة التي وردت في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري: (لقد خشيت على نفسي) وزعم من زعم

في تفسيرها ردها إلى الكهانة والجنون لم ترد في كثير من روايات أحاديث بدء الوحي، فورودها في بعض الروايات مهما تكن مكانة وشأن من أوردها في روايته - وهو غير معصوم عن الخطأ ودخول الخديعة عليه - لا يجوز مطلقًا أن يلصق بها في تفسيرها وبيان المراد منها، وهو أمر - لو كان قد وقع - من أخص ما يجول في داخل نفس النبي ﷺ، وهو لم يفصح عنه، ولا طريق لعلمه وراء ذلك - ما يتنافي مع ما يجب بداهة لمعنى العصمة، من التقحمات التفسيرية والتخرصات الباطلة، ما دام لها من منادح التأويل المعقول والتفسير السوي الطهور، ما يضعها موضعها من العلم والدين، ويصون قداسة النبوة بما يجب لها من الإعزاز والتكريم، ويحفظها عن الانزلاق في مهاوي الانحراف الذي يفتح على المسلمين منافذ التشكيك بما يلقيه أعداء الإسلام من المطاعن اعتمادًا على تلك التخرصات التفسيرية الخاطئة والتقولات الباطلة.

ونحن نورد من الأحاديث التي وردت في موضوع بدء الوحي، وليس فيها هذه الكلمة (خشيت على نفسي) أو ما يقرب من معناها، ما يدغدغ الثقة بورودها حيث وردت؛ لأن عدم ذكرها في عدد من الأحاديث التي تتحدث عن بدء الوحي يجعل موقف الأئمة الذين لم يوردوها في رواياتهم موقف المتحفظ الذي لا يروي إلا ما ثبت عنده، وفهم معناه واهتدى إلى تأويله، وهذه الكلمة: إما أنها لم تثبت عندهم أصلًا، أو

وردت عليهم ولكنهم لم يفهموا المقصود منها، لخفاء ذلك عليهم، إذ هو معنى يستقر في نفس النبي ﷺ، لم يفصح عنه في حديث صحيح، فكانوا بسكوتهم عن ذكرها أحوط لأنفسهم في دينهم وعلمهم، وأحوط للمسلمين في حوطهم من تسرب فتنة الشك إلى عقولهم وقلوبهم.

والكلمة -خشيت على نفسي- في ذاتها لا يتعلق بها غرض فكري أو شرعي، فتركها على فرض ثبوتها -لا يضير في نقص شيء من مهام الدين، فهؤلاء الذين تركوا هذه الكلمة في رواياتهم قد أقفلوا أمام المتربصين بالإسلام وأمام المتقولين عليه الباطل أبواب الأوهام والشكوك التفسيرية التي تثير الفتن الفكرية، وتهز العقيدة في إيمان جماهير المسلمين هزًا قد يقتلع جذورها من عقولهم وقلوبهم، لا سيما الذين لم يتحصنوا فكريًا حصانة تصون الإيمان من لفحات العواصف الإلحادية والتعصب الحقود.

والذين ذكروا هذه الكلمة -خشيت على نفسي- في روايتهم -وقد يكونون أرجح في ميزان الرواية- لثبوتها في منهجهم قد أدوا أمانة العلم، ولم يقتحموا سحائب الغيب ليقرءوا ما عسى أن يكون لها من تقحم وتخرصات تفسيرية تهز العقيدة وتعصف بالإيمان.

وليس على واحدة من الطائفتين من سبيل، إنما السبيل على الذين تقحموا متخرصين في تفسير المراد من الخشية،

حتى زعم بعضهم في تفسيرها وبيان المراد منها ما كان ويكون أمضى سلاح في يد أعداء الإسلام، ورسالة الإسلام ورسول الإسلام، وعلى الذين ظلموا أنفسهم فشمروا لتوجيه هذه المزاعم الفاسدة والدفاع عنها بما هو أفسد منها.

وقد اخترنا سياقة ابن سيد الناس لهذه الأحاديث -أحاديث بدء الوحي- لجودتها.

حديث عبد الله بن أبي بكر بن حزم من رواية أبي بشر الدولابي:

روى ابن سيد الناس في (عيون الأثر) -وهو من أثبت علماء السيرة النبوية تحقيقًا وفقهًا في رواياتها، وأحاديثها- عن أبي بشر الدولابي بسنده إلى عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أنه كان من بدء أمر رسول الله ﷺ أنه رأى في المنام رؤيا فشق ذلك عليه، فذكر ذلك لصاحبته خديجة بنت خويلد فقالت: أبشر، فإن الله لا يصنع بك إلا خيرًا، فذكر لها أنه رأى أن بطنه أخرج فطُهر وغسل، ثم أعيد كما كان، قالت: هذا خير فأبشر، ثم استعلن به جبريل، فأجلسه على ما شاء الله أن يجلسه عليه -وفي بعض الروايات- فأجلسني على درنوك -أي بساط له خمل- فيه الياقوت واللؤلؤ، وفي مرسل الزهري فأجلسني على مجلس كريم معجب -وبشره برسالة ربه حتى اطمأن، ثم قال: اقرأ،

قال : (كيف أقرأ) ؟) قال :

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾

فقبل رسول الله ﷺ رسالة ربه، واتبع الذي جاء به جبريل من عند الله، وانصرف إلى أهله، فلما دخل على خديجة قال: (أرأيتك الذي كنت أحدثك ورأيته في المنام فإنه جبريل استعلن) أخبرها بالذي جاءه من الله عز وجل، وسمع، فقالت: أبشر، فوالله لا يفعل الله بك إلا خيرًا، فاقبل الذي آتاك الله، وأبشر، فإنك رسول الله حقًا.

تعليق وتحليل وبيان:

فهذا الحديث الذي لم يطعن فيه أحد، ليس فيه أن رسول الله ﷺ لما انصرف إلى أهله، قال لخديجة وهو يحدثها بما رأى علانية، وما سمع جهرة (خشيت على نفسي) بل هو صريح في أن النبي ﷺ عرف معرفة يقينية، وعلم علمًا فوق العلم الضروري الذي يقع في إدراك الناس أن الذي سبق أن جاءّه في النوم، وحدث به خديجة هو أمين الوحي جبريل عليه السلام، وأنه قد استعلن له - أي ظهر له علانية في اليقظة - فأجلسه مجلسًا عجيبًا معظمًا لقدره، وبشره مشافهة برسالة ربه حتى اطمأن رسول الله ﷺ، وأقرأه جبريل أوائل سورة (اقرأ). والاطمئنان في أسلوب العربية أجل من العلم الضروري الذي

قد يقع نتيجة للبداهة التي قد تقتضيها العادات والأعراف السائدة في أي مجتمع من المجتمعات البشرية، أو نتيجة للبرهنة العقلية أو إدراك الحس، وهذه أمور قد يعرض لها ما يحيلها علمًا نظريًا يدخله الشك حتى تدركه برهنة عقلية أخرى.

أما الاطمئنان فهو مشاهدة الحقائق كما هي في عين اليقين، فلا يمكن أن يدخله ما يغيِّر من حقيقة مدركه في واقعه الوجودي، ولذلك لما سأل الخليل إبراهيم عليه السلام ربه أن يريه: كيف يحيي الموتى، قال له الله جلّ شأنه: ﴿أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ﴾ أى أنت في خلَّتك، ومكانتك من النبوة والرسالة أكمل الناس إيمانًا، فالاستفهام معدول به عن حقيقته الاستخبارية؛ لأن ذلك محال في حق الله تعالى، وإنما أريد به التقرير والتعجيب، ولذلك قال إبراهيم عليه السلام: (بلى) أي أنا مؤمن بعقلي إيمانًا لا يخالجه أدنى شك لما أريتني من آياتك في ملكوت السموات والأرض، ولكني أريد من مزيد فضلك ما هو أجلّ وأرفع درجة من الإيمان بالعقل الذي هو حظ كافة الأنبياء والمرسلين والحكماء من سائر المؤمنين، وأنا أريد إيمان الاطمئنان القلبي بشهود الروح في مرتبة عين اليقين.

أفكان خليل الله إبراهيم عليه السلام في إيمانه الذي طلب

معه مرتبة الاطمئنان القلبي بشــهود إبداع الله تعالى في إحياء الموتى غير حاصل له العلم الضروري في إيمانه بأن الله تعالى يحيي الموتى؟ هذا ما لا يمكن أن يهجس به خاطر مؤمن، ولا يقوله عاقل.

ولقد كان خليل الله إبراهيم عليه الســلام في رسوخ إيمانه على أرفع درجات العلم الضروري، ولكنه عليه الســلام طلب من الله عز شأنه مرتبة الاطمئنان القلبي، وهي مرتبة شهودية، أجــلّ وأرفع مما يحققــه العلم الضروري في رســوخ الإيمان؛ لأنه طلب من ربه عزّ شــأنه أن يريه رؤية شــهود كيفية إحيائه ـ جــلَّ ذكره ـ الموتى، وهذه مرتبة فوق مرتبة رســوخ الإيمان الذي ينتهي في تعاظمه إلى أكمل اليقين.

وهذا الاطمئنان القلبي في أكمل درجاته ـ الذي طلبه خليل الله إبراهيم عليه السلام، وهو مرتبة فوق مرتبة رسوخ الإيمان، وهي التي يعبر عنها الشهوديون أرباب القلوب بمرتبة (عين اليقيــن) ـ كان حــال نبينا محمد ﷺ في لقائــه بأمين الوحي جبريل عليه الســلام يقظة في غار حراء، وهو اللقاء الذي بدأ به نزول القرآن الكريم، وبدأت به رسالة محمد ﷺ.

وقــد كان ﷺ منذ اتخــذه الله نبيًا بوحــي الرؤيا الصادقة، ومــا تلاها من مراتب وحي النبوة أرســخ الأنبياء والمرســلين إيمانًا، وكان في مرحلة نبوته يزداد يقينًا بفضل الله عليه فيما يرى ويســمع ويحدِّث حتى فجأه الحق، وجاءه الملك جبريل

الأمين في غار حراء مستعلنًا، مبشرًا إياه برسالة ربه، حتى اطمأن، ثم قال له: اقرأ، قال: (كيف أقرأ) قال:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾

فمرتبة الاطمئنان - كما هو نص حديث ابن حزم - تجددت له ﷺ مع رسوخ إيمانه عند استعلان جبريل له وتبشيره برسالة ربه حتى اطمأن، وصار مغمورًا بأنوار الرسالة مكيفًا بخصائصها الروحانية، وهذا هو معنى ما جاء في حديث ابن حزم: فقبل رسول اله ﷺ رسالة ربه، واتبع الذي جاء به جبريل من عند الله.

إذ لا معنى لقبوله رسالة ربه إلا التكيُّف الروحاني بخصائصها، ولا معنى لاتباعه الذي جاء به جبريل من عند الله إلا النهوض للقيام بواجبات الرسالة عملا وتبليغًا.

فحديث عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم هو حديث الغار في جانب منه، دخله الاختصار في الرواية، ومفاجأة الملك في الغار للنبي ﷺ كما في حديث عائشة عند البخاري ومسلم - هي الاستعلان الذي جاء في حديث ابن حزم، وأخبر به النبي ﷺ خديجة في قوله:

«أرأيتك الذي كنت أحدثك ورأيته في المنام فإنه جبريل استعلن».

وفي هذا الاستعلان بشَّر جبريل محمدًا ﷺ برسالة ربه حتى اطمأن رسول الله ﷺ إلى أن الله تعالى اصطفاه لرسالته، واطمأن إلى أن الذي رآه في المنام هو عين الملك الذي استعلن له في الغار، وأقرأه ما نزل من آيات القرآن، وهو أمين الوحي جبريل عليه السلام.

ويؤكد ذلك من نص الحديث اتصالُ طلب جبريل من النبي ﷺ القراءة، ومراجعة النبي ﷺ له بقوله: (كيف أقرأ) فقال له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ بالاستعلان بحرف الترتيب (ثم) المقيد للربط بين الاستعلان والإقراء، ففي عبارة الحديث: ثم استعلن به جبريل، فأجلسه على ما شاء الله أن يجلسه عليه، وبشره برسالة ربه حتى اطمأن، ثم قال: اقرأ.

وقد حققنا أن نزول أوائل سورة (اقرأ) لم يذكر قط في حديث صحيح متصل الإسناد غير حديث الغار، وبيَّنا أن ما جاء في مرسل عبيد بن عمير عند ابن إسحاق من نزولها في المنام لا يوازن ما أجمعت عليه جوامع الأئمة ومسانيد جهابذة المحدثين، وأوضحنا أن نزول جميع آيات القرآن الكريم لم يقع إلا في وحي اليقظة، ولم ينزل منه شيء في المنام، وما زُعم غير ذلك فهو ضعيف.

كما يؤكده ما ورد في حديث عائشة رضي الله عنها من

رواية ابن لهيعة عن أبي الأسود وعن عروة قالت: كان ﷺ أول ما رأى جبريل بأجياد، وصرخ: يا محمد، فنظر يمينًا وشمالاً فلم يرَ شيئًا فرفع بصره فإذا هو على أفق السماء، فقال جبريل: يا محمد، فهرب فدخل في الناس، فلم يرَ شيئًا، ثم خرج عنهم، فناداه فهرب، ثم استعلن له جبريل من قبل حِرَاء، وذكر قصة إقرائه ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ .

وهذا يكاد يكون نصًا فى إفادة أن حديث ابن حزم هو حديث عائشة في قصة الغار، في الجانب الأساسي منه، لقوله: ثم استعلن له جبريل من قبل حراء وذكر قصة إقرائه ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾

فاستعلان جبريل للنبي ﷺ من قبل حراء هنا هو ظهوره مفاجئة للنبي ﷺ في الغار، وإقرائه أوائل سورة (اقرأ) لم يقع إلا في أول لقاء يقظي، هو الذي فاجأ به جبريل رسول الله ﷺ في غار حراء، وطلب منه أن يقرأ، وراجعه النبي ﷺ بقوله: (ما أنا بقارئ)، وتكرر طلب القراءة مع الغط الذي بلغ الجهد ثلاث مرات، وانتهى في المرة الرابعة إلى نزول خمس آيات من أول سورة اقرأ، ورجع بها رسول الله ﷺ إلى أهله قرير العين، مغمورًا بأنوار رسالته، مطمئنًا أكمل الاطمئنان إلى اصطفاء الله له اصطفاء كان به سيد العالمين.

أما احتمال أن يكون استعلان جبريل له ﷺ هو ظهوره له في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء كما جاء في حديث عبيد بن عمير عند ابن إسحاق - من قوله ﷺ : (فخرجت حتى إذا كنت وسط الجبل سمعت صوتًا من السماء يقول : يا محمد ، أنت رسول الله ، وأنا جبريل ، رفعت رأسي إلى السماء أنظر ، فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء ، يقول : يا محمد : أنت رسول الله وأنا جبريل) - فهو احتمال بعيد ؛ لأن ظهور جبريل للنبي ﷺ بعد خروجه إلى وسط الجبل في الصورة التي جاءت في مرسل عبيد لم يتصل بقصة إقرائه ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ كما اتصل الاستعلان من قبل الإقراء بها في حديث ابن حزم ، واتصال الاستعلان بقصة الإقراء هو البرهان على أن استعلان جبريل للنبي ﷺ في حديث ابن حزم هو ظهور الملك المفاجئ في الغار كما جاءت به رواية عائشة عند البخاري ومسلم وغيرهما .

حديث ابن عباس:

ثم روى ابن سيد الناس من طريق الدولابي أيضًا بسنده إلى ابن عباس قال : بعث الله عزّ وجلّ محمدًا على رأس خمس سنين من بنيان الكعبة ، وكان أول شيء أراه إياه من النبوة رؤيا في النوم .

قال ابن سيد الناس : فذكر نحو ما تقدم - أي مما جاء في

حديث ابن حزم من قصة شق البطن، واستعلان جبريل للنبي ﷺ، وتبشيره برسالة ربه، حتى اطمأن، وإقرائه أوائل سورة (اقرأ) - ثم قال ابن سيد الناس: وفي آخره - أى آخر حديث ابن عباس - فلما قضى - أى جبريل - إليه - أى إلى رسول الله ﷺ - الذي أُمر به - أى من الوحي والإقراء - انصرف رسول الله ﷺ منقلبًا إلى أهله، لا يأتي على حجر ولا شجر إلا سلم عليه: سلام عليك يا رسول الله، فرجع إلى بيته وهو موقن أنه فاز فوزًا عظيمًا.

تعليق وتحليل:

وهذا الحديث إلى ما فيه من التوافق بينه وبين حديث ابن حزم - في استعلان جبريل للنبي ﷺ وقصة إقرائه أوائل سورة (اقرأ) وعدم ورود كلمة (خشيت على نفسي) أو أي لفظ يحمل معناها - فإن فيه أصرح ما عبَّر عن ثبات جأش رسول الله ﷺ وكمال اطمئنانه على أن ما رأى وسمع في يقظته أمر من عند الله، جاء به إليه ملَك، هو أمين الوحي جبريل عليه السلام، كما يدل عليه قول الحديث: «فلما قضى إليه الذي أمر به انصرف رسول الله ﷺ منقلبًا إلى أهله، موقنًا أنه فاز فوزًا عظيمًا».

أفيوقن رسول الله ﷺ بالفوز العظيم وهو شاك في حاله، وفيما رأى وسمع وقرأ، مُلَبَّسٌ عليه، حتى يخشى على نفسه

أن يكـون مـا كان له فـي وحي اليقظـة من جنـس الكهانة أو الجنون؟.

هـذا من أبطـل الباطل، وأمحل المحـال، وما هو إلا تقحم علـى قدس النبوة، وجلال الرسـالة بمـا لا ينبغي لحقهما من حرمـة، بـل هـو تخرص علـى مقام رسـول الله ﷺ فـي أكرم مواقفه.

حديث عبيد بن عمير:

ثم روى ابن سـيد الناس حديث عبيـد بن عمير، وهو عند ابن إسـحاق في السـيرة، قال: كان رسـول الله ﷺ يجاور في حـراء من كل سـنة شـهرًا ـ وكان ذلك مما تحنـث به قريش فـي الجاهلية ـ والتحنث التبرر ـ فكان يجاور ذلك الشـهر من كل سـنة، يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى جواره من شـهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف قبل أن يدخل بيته الكعبة، فيطوف بها سـبعًا أو ما شـاء الله، ثم يرجع إلى بيته، حتـى إذا كان الشـهر الذي أراد الله به فيه مـا أراد من كرامته، وذلك الشهر رمضان، خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته، ورحم العباد بها جاءه جبريل بأمر الله تعالى.

قال رسول الله ﷺ: (فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتـاب، فقال: اقرأ، قلت: (ما أقرأ) فغتني به حتى ظننت أنه

الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: (ماذا أقرأ) ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع، قال:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾

فقرأتها، ثم انتهى، فانصرف عني. وهببت من نومي، فكأنما كتب في قلبي كتابًا، فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء، يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، رفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء، يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، فوقفت أنظر إليه، فما أتقدم، وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك. فما زلت واقفًا ما أتقدم أمامي، وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي، فبلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف عني وانصرفت راجعًا إلى أهلي، حتى أتيت خديجة، فجلست إلى فخذها مفضيًا إليها، فقالت: يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك، فبلغوا مكة ورجعوا إليّ، ثم حدثتها بالذي رأيت، فقالت: أبشر يا ابن عمي واثبت فوالذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل

وهو ابن عمها، وكان قد تنصر وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع، فقال ورقة: قدّوس قُدّوس، والذي نفسي بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له: فليثبت، فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول ورقة.

فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف صنع ما كان يصنع، بدأ بالكعبة فطاف بها، فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة، فقال له: يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله ﷺ، فقال له ورقة: والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولتُكَذَّبَنَّه، ولتؤذينه ولتقاتلنه، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرنَّ الله نصرًا يعلمه، ثم أدنى رأسه منه، فقبل يأفوخه، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله.

تعليق وتحليل:

هذا الحديث من أشهر روايات أحاديث بدء الوحي، ومن أوفاها بذكر الأحداث، وأكثرها تفصيلاً للوقائع منذ بدء وحي النبوة بالرؤيا الصادقة.

وقد ذكرت فيه أشياء لم تذكر في غيره من الأحاديث، ولعل من أشدها على التأويل ما جاء فيه من إقراء النبي ﷺ

في رؤيا المنام الآيات الخمس من أوائل سورة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ وهي الآيات التي بدأ بها نزول القرآن في وحي اليقظة بغار حراء، كما ثبت في حديث عائشة رضي الله عنها عند الشيخين وغيرهما.

توجيه وتأويل وبحث:

وحديث عبيد بن عمير مرسل فلا يقاوم مسند عائشة الذي أجمع الأئمة على قبوله، ولعل ما ورد في حديث عبيد من قوله ﷺ: (فجاءني وأنا نائم) قاصر على رؤيا نمط الديباج وما فيه من كتابة، ويكون قوله: فقال: (اقرأ) إلى آخر قصة إقرائه الآيات الخمس كلام غير متصل بقصة رؤيا النمط في النوم، وإنما هو بيان لما حدث بعد أن هبّ من نومه ﷺ، واستعلن له جبريل، وطلب إليه أن يقرأ، وراجعه النبي ﷺ، وتكرر ذلك مع الغتّ، ثم أقرأه الآيات الخمس في وحي يقظي، كانت فيه المفاجأة ومجيء الحق، ثم خرج رسول الله ﷺ بعد أن قضى إليه جبريل الذي أمر به وانصرف عنه، منقلبًا إلى أهله، حتى إذا كان في وسط من الجبل تجلى له جبريل عليه السلام في صورة ملائكية، ليزيده تثبيتًا في أمر رسالته، وخاطبه مؤكدًا له ما كان منه إليه في الغار، وأنه هو جبريل جاءه برسالة ربه.

وبهذا التوجيه يتفق مرسل عبيد في أصل مضمونه مع حديث عائشة رضي الله عنها في أن إقراء جبريل عليه السلام

للنبي ﷺ الآيات الخمس من أوائل سورة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ إنما كان في وحي اليقظة كغيره من جميع آيات القرآن الكريم.

ويحتمل أن تكون عبارة (وأنا نائم) في حديث عبيد بن عمير من قبيل ما جاء في أول حديث الإسراء والمعراج من رواية شريك بن عبد الله بن أبي نمر من عبارة (وهو نائم في المسجد الحرام) وما جاء في آخره من عبارة (فاستيقظ وهو في المسجد الحرام) اللتين تفيدان أن الإسراء والمعراج كانا منامًا، قال الإمام ابن القيم في (الهدي النبوي): وقد غلَّط الحفاظ شريكًا في ألفاظ من حديث الإسراء. وقال الإمام النووي: وقع في رواية شريك لحديث الإسراء أوهام أنكرها العلماء.

ومما ذكر في حديث عبيد بيان أن الذي جاءه في متعبده منامًا هو أمين الوحي جبريل عليه السلام بغير شك ولا تلبيس، وكانت هذه الرؤيا الصادقة تمهيدًا لاستعلانه له ولقائه في وحي اليقظة الذي جاءت قصته مفصلة في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري ومسلم وغيرهما.

من فوائد حديث عبيد بن عمير:

ومما ذكر في حديث عبيد تعيينه شهر جوار رسول الله ﷺ تحنثه في غار حراء الذي بدأ فيه وحي اليقظة بعد وحي الرؤيا الصادقة، وأن الله تعالى أكرمه برسالته في ليلة من لياليه، هي

الليلة المباركة، وهي ليلة القدر، كما سماها القرآن الكريم بأخباره أن إنزاله بدأ فيها، وأن جبريل أمين الوحي لقيه يقظة جهرة مستعلنًا له، وهو خارج من متعبده في حراء، وكلمه مشافهة مخبرًا إياه أنه رسول الله، وأن محدثه منذ اليوم في النوم واليقظة هو جبريل عليه السلام.

ومما ذكر في حديث عبيد رؤيا النبي ﷺ نمط الديباج الذي جاء به إليه جبريل، وما فيه من كتاب لم يصرح بحقيقتها ومضمونها، وليس في الحديث أن هذه الكتابة هي الآيات الخمس من أوائل سورة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ التي أقرأها إياه جبريل في وحي اليقظة بغار حراء.

ومن ثم يحتمل أن يكون الكتاب الذي كان في نمط الديباج شيئًا آخر من وحي الله تعالى إلى النبي ﷺ غير آيات سورة (اقرأ)، وهذا يتمشى مع مذهب جمهور العلماء في أنه لم ينزل شيء من آيات القرآن الكريم في النوم، وأن القرآن جميعه نزل في وحي اليقظة.

وفي حديث عبيد أن النبي ﷺ لما وصل إلى بيته جلس إلى زوجه الوفية الأمينة التي كانت تنتظر أوبته في لهفة الشوق والقلق لتأخره عن موعد أوبته إلى أهله - جلسة الزوج المتلطف بزوجه مفضيًا إليها، متحننًا عليها، متشوقًا إلى حنانها تسكبه في نفسه لتبدد عنه مظاهر روعة المفاجأة،

فأخبرتـه بمـا كان منها من إرسـال رسـلها في طلبـه، بعد أن أشـعرته بلهفة الحرص عليه بقولها: يا أبا القاسم أين كنت؟ لأنها اسـتبطأت عودته إلـى بيته وأهله في موعـده الذي كان يئوب إليهم فيه.

وهنا بعد أن سـكن روعه، وهدأت نفسه قال: (ثم حدثتها بالذي رأيت) فبشرته، وأعربتْ له عن ذات نفسها في رجائها أن يكون نبي هذه الأمة.

وهـذا الموضع من حديث عبيد هو المقابل للموضع الذي جاءت فيه عبارة (أي خديجة: مالي لقد خشيت على نفسي) فـي حديث عائشـة عند البخاري، ولم تذكـر فيه بنصها، ولا بأيـة عبارة تشـعر بما تضمنته من خوف رسـول الله ﷺ على نفسه أن يكون ملبسًا عليه في أمره، وأن ما رآه وما سمعه أمور من جنس ما يرى ويسـمع الكهان في وحي الشياطين إليهم، أو أنـه كان نتيجة تغير في قواه العقلية كما زعم المتخرصون من متقحمي تفسير عبارة (لقد خشيت على نفسي) إذا صح ورودها في الحديث.

فهـذا الحديث فـي خلوه من هـذه العبارة (خشـيت على نفسـي) كغيره مـن الأحاديث التـي لم ترد فيهـا بنصها ولا بما يحمل معناها أو يشـتمل علـى مضمونها، وهي أحاديث كثيرة، متعددة الطرق والأسـانيد، سـليمة مـن الطعن بأنها باطلة موضوعة، وهو مستوعب لقصة بدء وحي النبوة بالرؤيا

الصادقة في النوم، إلى بدء وحي الرسالة في اليقظة ببدء نزول القرآن الكريم، في أضخم عنوان لأعظم خصائص هذه الرسالة الخالدة

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾

واستعلان جبريل له ﷺ في صورة ملائكية وتأكيده له أنه رسول الله، وأن محدثه في النوم واليقظة هو أمين الوحي جبريل - يحمل في سياقته الدليل القاطع على أن ما اعترى رسول الله ﷺ من الروع الذي رجع به من متعبده إلى أهله، ترجف بوادره إنما كان أثرًا من آثار المفاجأة التي ظهر له فيها جبريل بصورته الروحانية العليا، وأثرًا من آثار الغط بقوة هذه الروحانية، ليستفرغ بشريته ويعدّه لمجانسة الملأ الأعلى في كمال روحاني لا تقيده وشائج البشرية، ليكون دائمًا على أهبة اللقاء الروحاني في أعلى درجاته وأكمل مراتبه، وأرفع حالاته، وهو ﷺ على أكمل اليقين وأرسخ الاطمئنان باصطفاء الله تعالى له نبيا ورسولاً للعالمين.

فلا خشية على نفسه داخلته لتمس قلبه وروحه، ولا خوف اعتراه من تلبيس عليه يحوم حول مداركه وقوى عقله، بل رجع من متعبده في حراء إلى أهله، وهو موقن أنه قد فاز فوزًا عظيمًا.

بعض ما يسترعي النظر في حديث عبيد:

وفي هذا الحديث نكتة تسترعي نظر الفكر المتطلع إلى الحقائق ولو جاءت من وراء الكلمات، ذلك أن خديجة رضي الله عنها لم تكد ترجع إلى رسول الله ﷺ -وكان لا يزال في بيته ينتظر أوبتها من لقاء ابن عمها ورقة بن نوفل لتؤكد بما تسمع منه -وكان ورقة عليمًا بالمبشرات، وأنباء البعثة- فراستها، وأخبرت النبي ﷺ بما جرى بينها وبين ورقة من حديث بشأن ما رأى رسول الله وما سمع، فازداد ﷺ نورًا إلى نور يقينه، لما يعلمه من مكانة ورقة في العلم والمعرفة بما في التوراة والإنجيل من المبشرات ببعث رسول قد أظل الحياة مخرجه.

وعاد رسول الله ﷺ إلى جواره في متعبده بحراء، وهو الذي حدث له فيه ما حدث من مفاجأة اللقاء الملائكي يقظة، ولولا حلاوة هذا اللقاء في مذاق الروحانية التي أُشربها رسول الله ﷺ، ولولا عظم ما في هذا اللقاء الملائكي من التجليات الربانية والأنوار العلوية، ولولا تطلعه ﷺ إلى مزيد من أنوار هذا اللقاء الملائكي، ما كان ليسرع بالعودة إلى هذا المتعبد، ولكنه ﷺ وهو مستغرق بأنوار رسالته التي بدأت بهذا اللقاء أراد أن يستعيد مع نفسه مشاهد هذا اللقاء، ويترقب المزيد من الأنوار.

فهل في منطق العقل أن يكون رسول الله ﷺ خشي

على نفسه ما تخرص به المتخرصون، ثم يسرع إلى العودة إلى المكان الذي لقي فيه ما خشيه على نفسه في زعم المتخرصين؟.

إن بداهة العقل تأبى أن تقبل ذلك، وتنادي بأن أى إنسان توجس خيفة من شر حادث وقع له في مكان لا يمكن أن يعود إليه، وفي سرعة، وهو يملك الاختيار والإِرادة.

ولكن رسول الله ﷺ عاد إلى غار حراء مسرعًا بُعَيد أن قضى حق أهله كعادته في خلواته، وهذا هو صريح الحديث في قوله: فلما قضى رسول الله ﷺ جواره -أى بعد عودته من بيته، وبعد مقابلة خديجة ورقة بن نوفل، وبعد إخبارها النبي ﷺ بما قال وانصرف- صنع ما كان يصنع من البدء بالطواف بالكعبة فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة.

وهذا صريح في أن النبي ﷺ رجع -بعد إلمامه بأهله وتزوده لخلوته إلى جواره بغار حراء، وأنه أكمل مدة تحنثه التي اعتادها، ولم يذكر شيء وقع له ﷺ في مدة هذا الجوار.

وعودته ﷺ إلى جواره في متعبده بعد كل الذي جرى له من رؤية الملك منامًا ويقظة، وما رآه من عظمة خلق جبريل عليه السلام، وما سمعه منه من أمر الله ووحيه، وما حدَّث به زوجه الوفية الأمينة، وما قاله ورقة لها، وما قاله لرسول الله ﷺ في لقائه له وهو يطوف بالكعبة- دليل قاطع على ثباته ﷺ ورباطة جأشه، واطمئنانه ويقينه بفوزه برسالة ربه،

ولقائه أمين الوحي جبريل عليه السلام، وأنه لم يشكّ قط في أمره، ولا لُبس عليه لحظة واحدة في شأنه، وأنه ﷺ في ثباته وهدوء نفسه، وهو راجع من جواره، يجري على سنته التي استنها منذ حُبّب إليه الخلاء في غار حراء، في صنع ما كان يصنع من قبل، يبدأ بالكعبة فيطوف بها قبل أن يدخل بيته، ويلقاه في هذا الطواف ورقة بن نوفل، ويطلب إليه متلطفًا أن يخبره بما رأى وما سمع، تأكيدًا لما كان بينه وبين خديجة حين ذهبت إليه قبل هذه المرة، فيخبره رسول الله ﷺ وهو هادئ النفس مطمئن الخاطر - بالذي وقع له كما أخبرته به خديجة من قبل، فيصدقه ورقة، ويؤكد له ما أكده لخديجة في لقائها له، بأنه نبي هذه الأمة، ويزيده إخبارًا ببعض ما سيلقاه في مستقبل رسالته من قومه من العداوة، وأنه سيُكذّب، ويؤذى، ويقاتل، ويخرج من بلده ووطنه، مما كان رسول الله ﷺ يتوقع الكثير منه موطنًا نفسه على الصبر والمصابرة.

بحث ونظر

جاء فى رواية الحموي والمستملي في كتاب (التعبير) من الجامع الصحيح، وهي التي اعتمدها القسطلاني وعوّل عليها في (المواهب) : فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال : (يا خديجة : مالي ؟) وأخبرها الخبر، وقال : (قد خشيت عليّ) بياء مشددة هي ياء المتكلم، وهي رواية تسترعي النظر المتأمل، والبحث المتعمق، لأنها تحمل بأسلوبها المبادرة إلى أن تكون هذه الجملة خطابًا استفهاميًا للإنكار التعجبي، وجهه النبي ﷺ إلى خديجة زوجه الوفية الأمينة، وهي أعرف الناس به، حينما عاد إليها بعد لقاء الملك في مفاجأة الغار وما جرى فيها من طلب القراءة والغط، وتكرار ذلك، وعليه آثار الروع والمشقة، حتى هدأت نفسه وذهب عنه أثر ما كان يجد، أخبرته خديجة بما كان منها من قلق الانتظار، والحرص واللهفة على أوبته في موعده الذي جرى عليه في خلواته، ولعلها قد دارت بخواطرها الهواجس، وخشيت عليه أن يكون قد حدث له من أحداث الحياة ما أخّر أوبته في موعده، فقالت له معّبرة عن حرصها ولهفتها : أين كنت يا أبا القاسم؟ وأخبرته أنها أرسلت رسلها في طلبه، ولكنهم عادوا إليها دون أن يعلموا عنه شيئًا، فزاد ذلك في قلقها عليه، ورأى رسول

الله ﷺ ذلك على سيماء وجهها ونظراتها المتلهفة، فقال لها ليخفف عنها ما ألّم بها (مالي؟) استفهامًا إنكاريًا لما بدا عليه من آثار القلق، ومعناه: لا شيء يستدعي منك هذا القلق الذي دعاك إلى إرسال رسلك في طلبي، وها أنت ذي ترينني على أكمل حال، لولا بعض أثر جهد ما أخبرتك من مفاجأة الملك في حراء (قد خَشِيتِ عليّ) بتاء المخاطبة المتصلة بفعل الخشية فاعلًا له، وبالياء المشددة مدخولة حرف الجر (على) وحذف همزة الاستفهام، أي أخشيتِ أنت عليَّ أن يكون قد حدث لي شيء من أحداث الحياة عوّقني عن الأوبة إليكم في موعدي؟.

فالذي وقعت منه الخشية هو السيدة خديجة رضي الله عنها، ولهذا جاء ردها: كلا، أي لم أخشَ عليك شيئًا يضرك أو يسيء إليك، فأنت من لا يخشى عليه، لأنك الكريم الصدوق، الأمين المحبوب، الشجاع الذي لا يهاب الأحداث، الوَصول للرحم الذي يعطي فيغني، ويعين فيرفع، ويعطف فينعش، يكرم الضيف فيملكهم بإحسانه، فكيف أخشى عليك وقد جمع الله لك مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم وفضائل الشمائل التى تحببك للقلوب، ولن يخزيك الله أبدًا، ولن يصنع بك إلا خير ما يصنع بأحب عباده إليه.

ثم حدثها بعد أن طمأنها بما رأى وما سمع، وما كابد،

وحدثها عن استعلان جبريل له، ومجيئه إليه بوحي ربه ورسالته ليسرها ويبشرها بتحقيق رجائها بأنه نبي هذه الأمة، فابتهجت بما سمعت منه، وأرادت أن تزداد يقينًا فانطلقت ـ أولًا ـ حتى أتت غلامًا لعتبة بن ربيعة نصرانيًا من أهل نينوى، يقال له عداس ـ كما عند سليمان التيمي وموسى بن عقبة ـ فقالت له: أذكرك الله إلّا ما أخبرتني هل عندكم علم من جبريل؟ فقال عداس: قدوس، قدوس، يا سيدة نساء قريش، ما شأن جبريل يذكر بهذه الأرض التي أهلها أهل أوثان؟ فقالت: أخبرني بعلمك فيه، قال: هو أمين الله بينه وبين النبيين، وهو صاحب موسى وعيسى.

ثم انطلقت بعد حديثها مع عداس إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، لما شهر عنه في مكة من العلم بما في التوراة والإنجيل وتباشير الأحبار والرهبان بما جاء في الكتابين من أوصاف محمد وبعثه نبيًا ورسولًا للعالمين، وأن وقته قد أظلّ الحياة بنفحاته، فأخبرت ورقة بخبر رسول الله ﷺ، وما رآه في غار حراء وما سمعه من الملك، فصنع ورقة ما صنع عدّاس من التقديس، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، وتمنى ورقة أن يعيش حتى يدرك انتشار الإسلام وجهاده ليكون جنديًا من جنود الله، يجاهد في ظل لواء النبي ﷺ في سبيل إعلاء كلمة الله، ولكنه أدركته منيته، فلم يلبث بعد بعث النبي ﷺ إلا قليلًا، ثم توفي وفتر الوحي.

وموضع النظر في هذا البحث الجانبي أن أسلوب العبارة في رواية الحموي والمستملي التي عوّل عليها الإمام القسطلاني في مواهبه، ومجيئها في قوله ﷺ: (خَشِيتِ عليّ) بياء المتكلم مدخولة لحرف الجر (على) يكاد يوجب اتجاه الفهم إلى أن هذا خطاب استفهامي حذف منه حرف الاستفهام، يوجهه النبي ﷺ إلى السيدة خديجة إنكارًا تعجبيًا لحالها في قلقها ولهفتها على أوبته في موعده الذي ألفت عودته فيه في أوباته كلِّها من جواره إلى بيته وأهله ليتزود لعودته إلى جواره.

فإنه لم يعهد في أساليب العربية أن يقول الإنسان معبرًا عما حدث له، وما يخشاه على نفسه وهو يخاطب غيره (خَشِيتُ عليّ) وإنما المعهود في أساليب الفصحى أن هذا التعبير يكون في أسلوب الاستفهام عما في نفس المخاطب بالنسبة للمتكلم بعبارة (خَشِيتِ عليّ) بحذف همزة الاستفهام، وهو حذف سائغ كثير الورود في أصح النصوص العربية الفصيحة.

وإنما جعلنا هذا الفهم بحثًا جانبيًا لأننا لم نر أحدًا من باحثي القدامى والمحدثين اتجه إليه، فلم نر الجزم به رأيًا اجتهاديًا، ولكنا جعلناه بمعرض البحث، لعل أحدًا من الباحثين يجد في روايات الحديث أو في كلام الشراح ما يؤيد هذا الفهم.

وأما رواية (خشيت على نفسي) فيمكن تأويلها ورجعها إلى ما فهمناه في رواية (خَشِيت عليّ) لأن التعبير في مخاطبة من ظهرت عليه أمارات القلق واللهفة إنكارًا لهذا القلق والتلهف، وتعجبًا من حصولهما بغير موجب يقتضيهما بعبارة (خشيتُ على نفسي) خطابًا استفهاميًا إنكاريًا محذوف حرف الاستفهام ـ سائغ الورود في فصيح الكلام، ويكون حينئذ من باب الإظهار في مقام الإضمار لنكتة بيان مورد الإنكار وسببه، فكأنه قيل لخديجة رضي الله عنها: (خشيتِ على نفسي؟) كيف وأنت أعلم الناس أن نفسي في قوة تكوينها الجبلّي وما طبعت عليه من مكارم الأخلاق أبعد من أن تخشى عليها أن يصيبها من أحداث الحياة ما يضيرها أو يسيء إليها ولاسيما بعد قوله: (مالي؟) المعبر بأسلوب الاستفهام الإنكاري عن سلامته، وأنه لم يقع له شيء مما خشيته عليه، فجاءت الجملة (خشيت عليّ؟) بخطاب الاستفهام التعجبي تأكيدًا له.

وكأن الحديث يمر في أسلوب الخطاب الموجه للسيدة خديجة رضي الله عنها، ويجيء معبرًا عما رأته من آثار ارتياعه ورجف بوادره، وطلبه أن يدثّر ليستريح وتهدأ نفسه، ويسترجع راحته، وكأنه قيل لها: أما ما رأيته من مظاهر المشقة والجهد فذلك أثر من آثار ما كنت حدثتك أني رأيت في منامي، وكان الذي رأيت ملَك الوحي جبريل

أرسله إليّ ربي بوحي النبوة ثم استعلن لي، وبشّرني بأني رسول الله حقًا، وأخبرني عن نفسه بأنه جبريل وأقرأني من كتاب ربي ما قرّت به عيني.

وهذا التأويل لعبارة (خشيت على نفسي) يردها إلى تأويل عبارة (خشيت عليّ) باعتبارهما خطابًا إنكاريًا تعجبيًا موجهًا إلى السيدة خديجة رضي الله عنها، فيتوافق المعنى في الروايتين، ويسلم الحديث من احتمالات التخرصات، ويبعد جدًا رجع عبارة (خشيت عليّ) إلى عبارة (خشيت على نفسي) باعتبارهما معبرتين عن الإخبار بحال رسول الله ﷺ، وما أصابه من الروع والدهش لمفاجأة الملك له وغطه وإقرائه أول ما نزل عليه من كتاب الله تعالى.

وبهذا الفهم للعبارة في رواية الحموي والمستملي يسلم الحديث من أول وهلة عن تقحمات تفسير المراد من الخشية باعتبارها أمرًا وقع لرسول الله ﷺ، وأخبر به عن نفسه؛ لأنها في روايتهما تخرج عن هذا الاحتمال، وتأخذ مكانها الصحيح في قصة بدء الوحي.

وسلامة الحديث من مصدر استنباط المستنبطين لأسباب الخشية ـ من الشك وأباطيل الكهانة وأكاذيب الجنُن التي يجب تنزيه ساحة النبوة عن حومان هذه التقحمات حولها ـ بصرف هذا المصدر إلى أقرب احتمالاته، ويغني عن

تخرصات المتخرصين، ويحفظ للنبوة قداستها، ويصون العصمة النبوية عن التقول بالباطل من أعداء الإسلام.

اختلاف الروايات لا ينافي وحدة الموضوع:

والظاهر عند إمعان النظر في روايات الأحاديث الواردة في موضوع (بدء الوحي) أنها كلها تتحدث عن موضوع واحد، لكنها اختلفت في الروايات بالزيادة والنقص، وبعضها يكمل بعضًا، فيما يجب قبوله من معانيها وحقائق ما تتحدث عنه بما يتفق مع ما يجب للنبوة من قداسة، وما يجب للأنبياء من عصمة عامة في جانب التوحيد والإيمان، ومعرفة جلال الله وكمالاته، منذ تعهدهم الله تعالى بالتربية والرعاية، قبل أن يبعثهم برسالاته، وهذا ما يقضي به ويوجبه قول الله تعالى:

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ (الأنعام: ١٢٤)

لأنه يتضمن في معناه وغايته أنه لا يمكن أن يجعل الله رسالته فيمن تدنس باطنه بالشك في أمر الله ووحيه، ولا من تدنس ظاهره بعبث الكهانة ووحي الشياطين، ولا من كانت قواه العقلية والروحية بمعرض التأثر المخل بموجبات الاستقامة ويقين الإيمان.

ولا اعتبار بشذوذ من شذّ، فضلّ الطريق في تفسير نحو قول الله تعالى:

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ (الضحى: ٧)

فقال مقالة بشعة لا يقولها من يرجو لله في رسالاته ورسله وقارًا، ولا يقولها من يعلم من حياة محمد ﷺ ما تواتر من نمط نشأته في أرفع المكارم، وطهارة القلب والبعد عن دنس الجاهلية في عقائدهم وأخلاقهم، حتى بعثه الله تعالى رحمة للعالمين.

وهذه مقالات شاردة عن أصول الإسلام، فيجب نبذها وبهرجتُها(١١)، وإظهار بطلانها، ولا وزن للهالات التي تحوط أسماء أصحابها، لأن الحق حق مهما تكن ضآلة مكانة قائله في هذه الحياة، والباطل باطل مهما تكن طنطنة اسم قائله، والله تعالى يقول:

﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾
(العنكبوت: ٣)

وفي الحديث «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»

فالنبي ﷺ قبل أن يفاجئه جبريل في غار حراء بوحي اليقظة كان نبيًا بوحي الرؤيا الصادقة التي عرف بها معرفة يقين واطمئنان أنه نبي يوحى إليه، وأن الله تعالى اصطفاه لنبوته، وأن الذي كان يراه في منامه يلقي إليه من أمر الله ما يُرسل به إليه من عند الله، هو أمين وحي الله للأنبياء جبريل

(١١) بَهرجةُ الشيء بيان بطلانه. يقال درهم بهرج أي زائف. (المجلة)

عليه السلام، وأنه هو الذي فاجأه في الغار يقظة وطلب إليه أن يقرأ، وغطه حتى بلغ منه الجهد، وكرر عليه طلب القراءة والغط، بدليل قوله ﷺ لخديجة كما في حديث ابن أبي بكر بن حزم: (أرأيتك الذي كنت أحدثك أني رأيته في المنام فإنه جبريل استعلن).

فجبريل عليه السلام بمقتضى هذا الحديث كان واسطة الوحي في الحالين: حال الرؤيا الصادقة في النوم التي تجيء في وضوحها مثل ضوء الصبح ينفلق عنه غبش الظلام، وهي أولى مراتب وحي النبوة. وحال اليقظة التي كانت أولى مبتدآتها لقاء الغار الذي بدأ به وحي الرسالة، وهو لقاء ثبت قطعًا أنه وقع للنبي ﷺ وهو نبي يوحى إليه بوحي الرؤيا الصادقة التي جاءه فيها جبريل بأمر ربه، وهي سنة الله مع سائر النبيين، فقد روى أبو نعيم في الدلائل عن علقمة بن قيس صاحب عبد الله بن مسعود أنه قال: أول ما يؤتى الأنبياء في المنام حتى تهدأ قلوبهم، ثم ينزل الوحي في اليقظة، وهذا الذي يقوله علقمة مما لا سبيل فيه للرأي والاجتهاد، ولابد - إذا صح - من وروده عن النبي ﷺ، فهو في قوة المرفوع.

ولا يمكن أن يكون لقاء الملك في غار حراء للنبي ﷺ يقظة بعد تحقق نبوته في دائرة الشك والتلبيس على نحو ما رمرم به القشاشون من المتقحمين بالتخرصات الباطلة

في تفسير بعض الكلمات الموهمة.

هذا من أبطل الباطل، لأن النبوة يجب أن تكون منذ أول مراتبها على أكمل درجات اليقين، وثلج الإيمان ورسوخه، وطمأنينة القلب التي لا تقبل أدنى شك أو تشكيك، ولا يدخل عليها تلبيس، ولا سيما في أخص خصائصها وأساس وجودها، وهو الوحي اليقظي الذي بدأت الرسالة به، فإذا جاءت بعض العبارات الموهمة لما لا ينبغي لجلال الرسالة في رواية صحيحة وجب صرفها عن احتمال إيهامها، وإعطائها معنى لائقًا بمكانها من كلام النبوة، وعبارة (خشيتُ على نفسي) وردت في بعض روايات البخاري مطلقة عن التفسير، وبيان سبب هذه الخشية، ولم يذكر معها ما يخدش حصن النبوة، فلا كهانة ولا جنون، ولا شك ولا تلبيس.

رواية واهية:

بيد أننا وجدنا محمد بن سعد يروي في الطبقات عن شيخه محمد بن عمر الواقدي بإسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: فبينا رسول الله ﷺ على ذلك وهو بأجياد إذ رأى ملكًا واضعًا إحدى رجليه على الأخرى في أفق السماء، يصيح: يا محمد: أنا جبريل، يا محمد: أنا جبريل، فذعر رسول الله ﷺ من ذلك، وجعل يراه كلما رفع رأسه إلى

السماء، فرجع سريعًا إلى خديجة، فأخبرها خبره، وقال: (يا خديجة: والله ما أبغضت بغض هذه الأصنام شيئًا قط، ولا الكهان، وإني أخشى أن أكون كاهنًا) قالت: كلا، يا ابن عم، لا تقل ذلك، فإن الله لا يفعل ذلك بك أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وإن خلقك لكريم، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل، وهي أول مرة أتته، فأخبرته ما أخبرها به رسول الله ﷺ، فقال ورقة: والله إن ابن عمك لصادق، وإن هذا لبدء نبوة، وإنه ليأتيه الناموس الأكبر، فمريه أن لا يجعل في نفسه إلا خيرًا.

نقد وتحقيق:

وهذه الرواية لا تَسْلم من النقد والاعتراض، فهي غير مقبولة. والبحث فيها من وجوه:

الأول ـ أن الواقدي ـ وهو محور هذه الرواية ـ مشهود عليه بالضعف، لا يعول عليه جهابذة المحدثين، فروايته محل نظر، ولاسيما إذا خالفت غيرها من روايات الثقات، وهي قد خالفت جميع الروايات التي لم يرد فيها عبارة (خشيت على نفسي)، وخالفت رواية البخاري وغيره من الأئمة الذين أوردوا في رواياتهم عبارة (خشيت على نفسي) مطلقة عن التفسير دون أن يذكر معها بغض الأصنام أو خوف الكهانة.

ثانيًا ــ إن ما ذكر في هذه الرواية الواقدية بالنظر إلى لبّ الموضوع، وزبدة قصة (بدء الوحي) هو عين ما ذكر في غيرها من الروايات، لأن القصة واحدة في موضوعها، ووقائعُها متلاحقة متقاربة في حقائقها، وأغلب الروايات الثابتة لم يرد فيها (خشيت على نفسي) بتة، فضلًا عن إلصاق الكهانة وبغض الأصنام، وهذه الروايات أصدق سندًا وأحكم معنى، وأجود سياقًا من رواية محمد بن سعد عن شيخه الواقدي، فلا وجه مطلقًا لقبول هذه الرواية المخلِّطة؛ لأنها لم توافق أصح الروايات، وهي رواية الشيخين: البخاري ومسلم في ورود عبارة (خشيت على نفسي) مطلقة عن تفسير المراد منها، ولم توافق سائر الروايات في عدم ورود عبارة (خشيت على نفسي) فيها أصالة، ولكنها خالفت ذلك كله وجاءت بشيء باطل منكر، وهو ذكرها للخشية مفسرة بالكهانة، ونسبة ذلك إلى النبي ﷺ أنه قال لخديجة، وهذا هو الذي تشبّث به المتخرصون في بيان سبب الخشية والمراد بها في رواية من ذكرها مطلقة كالبخاري ومسلم، مع إلصاق حديث بغض الأصنام والكهان، وهو حديث نافر الموضوع، شاذ الجَلَب، قلق المستقر.

ولعل هذه الرواية الواقدية ومثيلاتها هي التي قصدها

الإمـام العلامـة ابن حجـر بقوله في شـرح البخـاري، وهو يحكي أقـوال العلماء في بيـان المراد من الخشـية: أولها الجنون، وأن يكون مـا رآه من جنس الكهانة، جاء مصرحًا به في عدة طرق، وقد عرفنا مما سـبق أن حذّاق العلماء لم يعبئـوا بهذه الطرق، وأبطلوا ما جـاءت به من فريةٍ ما فيها مريـة، وكان ابن حجر في طليعة من صـدق على بطلانها، فلتذهب مع أمثالها من الأباطيل الموضوعة الكاذبة، لتبقى ساحة النبوة مطهرة مقدسة بعصمة الأنبياء والمرسلين.

ثالثًا - كيف يخشى رسول الله ﷺ على نفسه أن يكون كاهنًـا، وهو كمـا تقول الرواية الواقديـة يبغضها بغضًا لم يبغضه شـيئًا قط؟ وهـذا البغض وإن كان واقعًا راسـخًا في خلق رسـول الله ﷺ مركوزًا في طبعه وفطرته التي فطره الله عليها؛ تنزيهًا له عن شوائب الأباطيل والأضاليل، منذ تولاه الله برعايته وتربيته ـ لكن هذا البغض في مكانه من الرواية الواقدية جاوز موضعه من فطرة رسول الله ﷺ، واتخذ وضعًا مريبًا واهنًا في لحظة تاريخية من حياة رسـول الله ﷺ؛ لأن هذه الرواية جعلت هذا البغض أبطولة يخشـاها رسـول الله ﷺ على نفسـه، وهو فـي ذروة الطهر ويقين الإيمان، وهو يتلقّى وحي رسالته رحمة للعالمين.

رابعًا ـ ألا سأل الذين يتكثرون بهذه الروايات الباطلة، والذين يتخرصون في بيان المراد من الخشية أنفسهم، أين

تقع الكهانة وزمزمتها، وأكاذيبها وأضاليلها من
﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾

وهي الآيات البينات التي رجع بها رسول الله ﷺ إلى أهله، ترجف بوادره من استفراغ بشريته، وإفراغ روحانية الملأ الأعلى في روحانيته العلية، حتى تتم له مجانسة الروح الأمين في قوة روحانيته الملائكية ليتلقى منه وحي ربه له برسالته وآيات كتابه المبين؟ وهو ﷺ أعظم الناس عقلًا، وأطهرهم قلبًا، وأزكاهم إدراكًا، فلا يُعْقَلُ أن يرجع إلى أهله بهذه الآيات البيِّنات في سمو معانيها، ثم يداخله أدنى هاجس في كهانة.

خامسًا ـ ما وجه إقحام هذه الرواية الواقدية بُغْضَ رسول الله ﷺ الأصنام بغضًا لم يبغضه شيئًا قط؟ هل خشي رسول الله ﷺ على نفسه أن يكون ما رآه في الغار من مفاجأة الملك، والغط وإقرائه آيات من كتاب الله متصلًا بالأصنام كصلة الكهان بها، وأن ذلك من قبيل ربط الكهانة بالأصنام في تلقي زمزمتها وأكاذيبها، فخشي ﷺ على نفسه أن يكون كاهنًا تسيِّره الأصنام؟

إن اعتقاد ذلك من أكفر الكفر وأبطل الأباطيل، وبغض رسول الله ﷺ للأصنام أمر متعالم في حياته ونشأته قبل أن

يبعث للناس رسولًا، يعرفه له العدو والصديق، ولم يتهم قط بأنه ﷺ مسّ صنمًا، أو تمسح بوثن، فلا معنى لذكر هذا البغض المتعارف في مقام تلقي رسول الله ﷺ وحي رسالة ربه وما حدث له في هذا المقام من مفاجآت انتهت بفوزه ﷺ فوزًا عظيمًا برسالة ربه رحمة للعالمين.

سادسًا ـ إذا كان النبي ﷺ يبغض الكهان والكهانة بغضه للأصنام، وهو بغض لم يبغضه شيئًا قط، وهذا واقعه ﷺ في حياته ـ فكيف يخشى على نفسه أن يكون كاهنًا؟

هل الكهانة أمر ينزل بالإنسان كرهًا منه، على غير رغبة منه فيه؟ والمعروف في تاريخ الكهانة عند سائر الأمم الجاهلة أن الكهانة منصب وثني شيطاني، مرموق عند أحلاس الشرك وعبيد الوثنيات(١٢)، يطلبها ويحتال على كسبها ذوو الحيلة الخبيثة والشعوذة الخادعة الماكرة، ومن تستغويهم مردة الشيطان من ذوي الفطر الدنسة، والقلوب الفاجرة، والنفوس الشريرة، فكيف يخشى رسول الله ﷺ على نفسه أن يكون كاهنًا في أرفع لحظات حياته، وهو أطهر الأطهار، وأصدق الصادقين، وهو الذي قال أعدى أعدائه: ما جرّبنا عليك كذبًا قط، والكذب

(١٢) أحلاس الشرك الذين لا ينفكون عنه. الحِلْسُ ما يُطرح على ظهر الدابة، ويقال للفارس الذي لا يفارق فرسه حلسٌ. انظر جمهرة اللغة. (المجلة)

أخـص خصائص رجس الكهانة، وهو ﷺ الذي أجمع قومه علـى تلقيبه بالأمين، والأمانة في صورتها الخُلقية الكريمة أبعد صفات الإنسـانية عـن الكهانة والكهـان، فلا يمكن أبدًا أن يكون قد داخل خاطر رسـول الله ﷺ شـيء من هذه الأباطيل.

فهـذه الروايـة وضريباتها مما شـحنت بـه بعض كتب التراث الإسـلامي، يجب طرحها وتنقية السيرة النبوية من أوضارها، ويجب التنبيه على أضرارها وبطلانها.

***

مسلك حذاق العلماء في فهم العبارات الموهمة:

وقد تنبـه بعض حـذّاق العلماء من أئمـة المحدِّثين إلى مـا تنطـوي عليه تقحمـات المتخرصين في تفسـير بعض الكلمـات الموهمـة مـن أضـرار علـى عقيـدة التوحيـد، وتعريض قداسة النبوة والرسالات الإلهية، وعصمة الأنبياء والرسـل لهـزات التأويل المتعسـف الذي قـد ينقلب إلى تحريـف، يتشـبث بـه الذين فـي قلوبهم مـرض، ويزعزع الإيمان في نفوس الذين لم تكن لهم القدرة على دفع الشبه والتشكيكات المضلة من عامة المسلمين، لا سيما شباب المسلمين المثقفين ثقافة أجنبية عن الإسلام وأصوله، وهم في هذا العصر كثرة غامرة، نشـأوا في ظل ضعف المجتمع

الإسلامي وجهالته بدينه وتاريخه، ونُشِّئوا تنشئة غريبة عن أصول الإسلام وآدابه وشرائعه ونظمه، فكانوا غرباء عنه، وكانت تعاليمه غريبة عنهم.

فإذا تراءت لهم عن قصد أو غير قصد ألفاظ موهمة في بعض روايات الحديث المتعلقة بالعقيدة، أو أُرُوها مزعزعة ركائز الإيمان في أنفسهم، كان عجزهم عن دفع ما فيها من إيهام، وسيلة عاصفة، تعصف بعقائدهم، وتذيب إيمانهم، وإذا رأوا في كتب التراث الإسلامي، أو أُروا روايات تحكي أمورًا لا تتفق مع أصول الإسلام، ولم تجد نقدًا يبهرجها ويظهر زيفها، بل قد تجد دفاعًا عنها، وتعسفًا في تأويلها من بعض من حسنت ظنونهم فيمن ينقلون عنهم هذه الروايات، كانت تلك الروايات فتنة لهم في دينهم، تهز إيمانهم وتملأ قلوبهم وعقولهم شكوكًا وأوهامًا.

تنبه هؤلاء الأجلاء من أعلام علماء الإسلام إلى ما في الاتجاه المستسلم ـ الذي يقبل كل ما يُروى لمجرد صحة السند في نظرهم ـ من خطر على العقيدة، وقصارى هؤلاء المستسلمين أن يتعسفوا في التأويل تعسفًا يزيد من بُعد المعنى، ويقلب التأويل إلى التحريف والتشويه.

بَيْد أن أولئك الأجلاء من حذّاق أعلام العلماء تصرفوا في توجيه ما ثبت من هذه الكلمات الموهمة توجيهًا يضعها في

موضعها من معالم الإيمان، ويصرفها عن مزالق التحريف الموبق إلى مدارك الملاءمة لما ينبغي أن يكون لها من دلالة على معنى يستقيم مع أصول الإسلام، ولا يتنافى مع قداسة النبوة والرسالات الإلهية، وعصمة الأنبياء والمرسلين.

يقول القاضي عياض: إن الخشية على نفسه ﷺ وقعت له أول ما رأى التباشير في النوم، ثم في اليقظة، وسمع الصوت، قبل لقاء الملك، فأما بعد مجيء الملك فلا يجوز عليه الشك، ولا يخشى من تسلط الشيطان.

ومن العجيب أن ينتهض الإمام النووي لتضعيف قول عياض، بحجة أن قول عياض خلاف صريح الحديث الذي بين سياقه أن الخشية كانت بعد الغط، وإتيانه (اقرأ).

وهذا التضعيف الذي ذهب إليه الإمام النووي هو الضعيف المردود؛ لأن ورود الخشية: في الحديث بعد الغط وإتيانه (اقرأ) لا يلزم منه أن الخشية على نفسه ﷺ كانت بعد الغط، وإتيانه (اقرأ) بل يحتمل - كما يقول الإمام بدر الدين العيني - أنه ﷺ أراد بإخبار السيدة خديجة رضي الله عنها بما كان قد حصل له سابقًا، حين كان يرى الضوء، ويسمع الصوت من التباشير والإرهاصات التي لم تكن معها نبوة، قبل مجيء الملك له في النوم بالرؤيا الصادقة التي بدأت بها النبوة، وفي اليقظة بلقاء الغار الذي بدأت به الرسالة.

لا أنه ﷺ خشـي على نفسـه حين لقاء الملك في وحي اليقظة بالغار، وظلت معه تلك الخشـية ملازمة له إلى حين رجوعـه إلى أهلـه، وإخبار خديجـة بما رأى وما سـمع وما أقرئ، وأنه قد فاز برسالة ربه.

ولا شـك أن قول القاضي عياض هو القول الحق في هذا المقام؛ لأنه يتمشـى مـع أصح روايات الحديـث في ورود عبارة (خشيت على نفسـي) وهي رواية الشيخين، ويضع الخشـية في موضعهـا وموردها الـذي ينبغي أن تـرد إليه، حيـث لم تكـن النبوة بعصمتهـا قد جاءتـه، ولا غرابة في وقوع الخشـية منه ﷺ وهو يرى الضوء، ويسمع الصوت، وتسـلم عليه الأحجار والأشـجار قبـل النبـوة وعصمتها، إرهاصًا لما سيقع.

وهذه الخشية في موردها الصحيح أثر بشري يقع للأفراد إذا رأوا أو سمعوا أمرًا غريبًا، وقد ثبت في عدة أحاديث أنه ﷺ كان يسمع التسليم عليه من بعض الكائنات التي ليس من شـأنها أن تتكلم كالأحجار والأشجار - وحسب الباحث حديث مسـلم في تسـليم الحجر عليـه ﷺ - فينظر يمينًا وشـمالاً، فلا يـرى متكلمًا، وهذا شـيء قد يهز البشـرية ويروعهـا، وهـو ما عبـر عنه بالخشـية، وهي فـي موردها الصحيـح على قول القاضـي عياض، ولا يمكن أن يقبل في تأويلها وبيان المراد منها ما زعمه المتخرصون من الكهانة

والجنون، كيف والله تعالى يقول لإبليس:

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾

(الحجر: ٤٢)

وهذا عقد سابق من الله تعالى أيأس به إبليس من أن يكون له في نظرته وتأخير بقائه في الدنيا للإغواء والإضلال سلطان على أحد من خواص عباد الله، وقد استثناهم إبليس نفسه من الوقوع في حبائل إغوائه فقال كما حكاه الله تعالي عنه:

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾

(الحجر: ٤٠)

فكيف بأخص الخواص، وأفضل الأفضلين، محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين؟!

ويدل لما ذهب إليه القاضي عياض، ويؤيده تأييدًا واضحًا ما رواه ابن سعد في الطبقات بسند ليس فيه شيخه الواقدي، وهو من رواية عروة ابن الزبير قال: إن رسول الله ﷺ قال: «يا خديجة: إني أرى ضوءًا وأسمع صوتًا، لقد خشيت أن أكون كاهنًا» فقالت: إن الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله، إنك تصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتصل الرحم.

ووجه دلالته على ما ذهب إليه عياض، وتأييده له أن هذا

الحديث صريح في أن خشيته ﷺ أن يكون كاهنًا جاءت في إخباره خديجة رضي الله عنها بها عقب رؤيته الضوء، وسماعه الصوت، وهما من التباشير والإرهاصات وذلك قبل أن يوحي إليه بالنبوة، ولين الحديث وضعفه لا يمنع التأييد؛ لأننا لم نسق هذا الأثر لإثبات أصل المسألة.

دعائم تأييد مسلك حذاق العلماء:

ويدل له أيضًا ويؤيده تأييدًا قويًا ما رواه ابن سعد في الطبقات بسند ليس فيه الواقدي، قال: أخبرنا يحيي بن عباد، وعفان بن مسلم، قالا: حدثنا حماد بن سلمة - أحسبه عن ابن عباس - أن النبي ﷺ قال: «يا خديجة: إني أسمع صوتًا وأرى ضوءًا، وإني أخشى أن يكون في جُنن» فقالت: لم يكن الله ليفعل بك ذلك يا ابن عبد الله، ثم أتت ورقة بن نوفل فذكرت له ذلك، فقال: إن يك صادقًا فهذا ناموس مثل ناموس موسى، فإن يبعث وأنا حي فسأعزره، وأنصره، وأؤمن به، وفي قول ورقة: فإن يبعث وأنا حي دلالة على أن ذلك كان قبل البعث والنبوة.

ووجه دلالة هذا الحديث على ما ذهب إليه عياض، وتأييده له أن الحديث صريح في أن النبي ﷺ أخبر خديجة عن شيء من الإرهاصات والتباشير، يسمع الصوت، ويرى الضوء، ولا يرى صاحب الصوت ولا مصدر الضوء،

وهذا شيء غريب على النفس الإنسانية، ولاسيما إذا كان الإنسان في خلوة بنفسه وعزلة عن الناس، مما يوجب الخشية والارتياع بمقتضى الطبع البشري، قبل مجيء النبوة، وتحقق عصمتها.

فهذان الحديثان ـ وقد سلم سندهما من ضعف الواقدي ـ صريحان في أن الخشية التي شعر بها النبي ﷺ، وأخبر بها خديجة رضي الله عنها كانت عند رؤية التباشير والإرهاصات، قبل أن يوحى إليه بالرؤيا الصادقة، وهي أول مراتب وحي النبوة، وحيث لم تكن النبوة، فلا مانع أن يخشى رسول الله ﷺ على نفسه من هذه الأمور الغريبة التي يراها ويسمعها، ولا يرى مصادرها، وذلك طبيعي بمقتضى الطبيعة البشرية التي كان يعيش بها رسول الله ﷺ في حياته إنسانًا مع الناس، يخالطهم، ويتأثر بما يتأثرون، ويحوطه الله تعالى بحفظه ويتولاه برعايته من عواقب ذلك التأثر الطبيعي.

وكانت خديجة رضي الله عنها الزوجة الوفية الأمينة، مأنسه ﷺ، يجد في قلبها أصدق الحب والحنان، فحدثها بما رأى وسمع، وأخبرها بما شعر وأحس في مداخل نفسه الكريمة، ليجد عندها الكلمة الباسمة، تسري بها عنه، وتمسح بأهداب حنانها ما عسى أن يكون قد ألم به، حتى إذا جاءته النبوة بأول مراتب وحيها في الرؤيا الصادقة،

وغمرته أنوارها لم يبق عنده من أثر تلك الخشية شيء.

فإذا جاءه ﷺ الحق من ربه بأعظم رسالاته، وبعثه رحمة للعالمين، وخاتمًا للنبيين، وافتتح رسالته بأجل ما أنزله على المرسلين:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾

وعاد إلى أهله من متعبده وخلوته قرير العين، رابط الجأش، راسخ اليقين. مطمئن القلب بفوزه بأعظم نعم الله على الوجود بمن فيه وما فيه ـ قال المتخرصون ما قالوا من التحريفات والتأويلات الفاسدة؟!

ولكن حسبه ﷺ قول الله الرءوف الرحيم:

﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾

(التوبة: ١٢٨)

وقوله عز شأنه:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾

(الأنبياء: ١٠٧)

الفهرس